# الفصل الرابع

# دور أهل الشام في توطيد سلطان بني أمية

## دور أهل الشام في دعم خلفاء بني أمية

كان أهل الشام القاعدة المتينة والجبهة المتراصة التي كان الحكم الأموي يقوم عليها، وكل اختلال في هذه الجبهة كان يعرض الخلافة الأموية للخطر كما سيتبين لنا من خلال البحث، وقد رأينا دعم أهل الشام لمعاوية في صفين، كما دعم أهل الشام يزيد ابن معاوية، عندما رفض عبد الله بن الزبير البيعة له[1]، وانضم أهل المدينة إليه فثاروا على يزيد، وبالرغم من أن معظم المصادر تقسو بشكل عام على يزيد، إلا أنها في الوقت نفسه تحاول أن تبرز محاولات يزيد المتكررة في الوصول إلى حل يمنع سفك الدماء، كما أنها تشير إلى أن يزيد بن معاوية لم يعمد إلى حرب أهل المدينة ثم عبد الله ابن الزبير إلا بعد أن فشلت المفاوضات التي اشترك فيها عدد من الشخصيات البارزة في المجتمع الشامي[2]. وهذا بدوره ساعد يزيد على أن يحصل على دعم القوات الشامية بفئاتها المختلفة، ومن ثم نجد اتفاقاً في عدد كبير من المصادر بأن الجيش الذي انتدب لقتالهم كان مؤلفاً من ١٢ ألف مقاتل يضم مقاتلة من الأجناد الخمسة[3]، كما أنه كان

---

(١) البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ٢ ص ٣١.

(٢) المصدر السابق ج ٤ قسم ٢ ص ٢٠، ٣٢، ابن الأعثم، فتوح، ج ٥، ص ٢٧٩، ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ١ ص ١٧٧.

(٣) البلاذري، أنساب، ج ٤، قسم ٢، ص ٣٣. الطبري، ج ٥، ص ٤٩٣. تاريخ الخلفاء لمؤرخ مجهول، ص ١٩٧. ابن الأثير، ج ٤، ص ١١٢، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧ ص ٦٠.

يضم وجوه أهل الشام وفرسانهم[٤]، المؤمنين بأن النصر سيكون حليفهم لأن أهل المدينة قد خالفوا الإمام وخرجوا من الجماعة[٥]، وقد انتصر أهل الشام بفضل طاعتهم لأمرائهم واستقامتهم وصبرهم في لقاء عدوهم[٦] في معركة الحَرَّة في ثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٦٣ هـ، ولكننا يجب أن لا نغفل الدور الذي لعبه عبد الملك والخطأ الذي ارتكبه أهل المدينة بإخراجهم بني أمية منها، وبالرغم من أنهم أخذوا المواثيق عليهم أن لا يدلوا لهم على عورة وأن لا يظاهروا عليهم عدواً[٧]، فإن عبد الملك عندما التقى بمسلم بن عُقبَة المُرِّي قائد الجيش الشامي في وادي القرى، نصحه أن يتوجه بجيشه إلى المنطقة القريبة من المدينة التي يمكنه فيها «أن يستظل جيشه بظل نخلها وأن يأكوا من صقره» كما نصحه أن يذكي الحرس الليل كله عقباً بين أهل العسكر، ثم أن يتجه بعد صلاة الصبح مُشرِّقاً بحيث تكون المدينة إلى يساره ثم يدور حول المدينة حتى يأتيهم من قبل الحرة مشرّقاً ثم يهاجم القوم لأن الشمس عند ذلك ستطلع بين أكتاف أصحاب مسلم فلا تؤذيهم، وتقع في وجوههم فيؤذيهم حرّها ويصيبهم أذاها «ويرون مادمتم مشرّقين من ائتلاق بيضكم وحرابكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم وسواعدكم ما لا ترونه أنتم لشيء من سلاحهم ما داموا مغرّبين[٨]».

بالرغم من انتصار القوّات الشامية في موقعة الحرّة إلاّ أن هذه المعركة زادت من مكانة عبد الله بن الزبير في الحجاز، إذ بايعه أهل مكة وأهل الحجاز وأتاه أهل الحرّة، كما قدم عليه نجدة بن عامر الحنفي في ناس من الخوارج ليمنعوا البيت من أهل الشام[٩]، وتوجه الحصين بن نمير الذي تولى قيادة الجيش إثر وفاة مسلم بن عقبة المري[١٠] إلى مكة لمحاربة ابن الزبير، فحاصرهم حصاراً شديداً بقية المحرم وصفر ومدة

(٤) الطبري، ج ٥ ص ٥٣٧.
(٥) الطبري، ج ٥ ص ٤٨٦.
(٦) البلاذري، أنساب ج ٤ قسم ٢ ص ٣٦، الطبري، ج ٥ ص ٤٨٩.
(٧) الطبري، ج ٥ ص ٤٨٥.
(٨) المصدر السابق، ج ٥ ص ٤٨٦.
(٩) البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ٢، ص ٤٧، الطبري، ج ٥ ص ٤٩٧.
(١٠) الطبري، ج ٥ ص ٤٩٦، ٤٩٧.

أربعين يوماً إثر وفاة يزيد بن معاوية الذي مات لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ، وقد بويع لمعاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بالشام بالخلافة ولعبد الله بن الزبير بالحجاز[١١].

إن الترابط الذي نشاهده في بلاد الشام بين الأجناد جميعها لا يلبث أن يتصدع بعد وفاة يزيد وابنه معاوية في السنة نفسها، ولا يعود هذا الانشقاق إلى الصراع بين قيس ويمن كما يحلو لبعض المؤرخين إظهاره، وإنما لعدم وجود شخصية قرشية بارزة في الشام يمكنها أن تستقطب ولاء أهلها كما استقطبهم معاوية في صراعه مع علي، ولذلك اتجهت الأنظار كلها تقريباً في بادىء الأمر إلى عبد الله بن الزبير، ففي رواية هشام بن عمّار عن مولى لمعاوية، أنه لما مات معاوية بن يزيد مال أكثر الناس إلى ابن الزبير «لأنه رجل كامل السن ابن حواري رسول الله، وابن بنت أبي بكر ذات النطاقين»، فما هو إلاّ أن ورد كتاب ابن الزبير بتولية الضحاك بن قيس دمشق حتى سارعوا إلى طاعته وبيعته[١٢]، ومن المعروف أن الضحاك بن قيس كان من أكثر الناس ولاء لمعاوية وابنه يزيد، كما يشير البلاذري إلى أن ناتل بن قيس الجُذامي أخذ البيعة لابن الزبير في فلسطين، وضبط له النعمان بن بشير الأنصاري بيعة أهل حمص[١٣]، وأخذ له زفر بن الحارث الكلابي بيعة أهل قنسرين[١٤]، فاستقامت لابن الزبير الشام كلها إلاّ الأردن، وهذا هو الثبت كما يقول البلاذري[١٥]. ويتبين لنا من رواية ابن سعد عن محمد بن عمر أن مروان بن الحكم نفسه رأى في بادىء الأمر أن ينطلق إلى ابن الزبير فيبايعه[١٦]، ولكن قدوم عبيد الله بن زياد من العراق أدّى إلى تغيير في الموقف، إذ منعه قائلاً:

---

(١١) الطبري، ج ٥ ص ٥٠١.
(١٢) البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ٢ ص ٦٤.
(١٣) المصدر السابق، ج ٥ ص ١٢٨، الطبري، ج ٥ ص ٥٣١.
(١٤) الطبري، ج ٥ ص ٥٣١، ابن الأثير، ج ٤ ص ١٤٥.
(١٥) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٢٨.
(١٦) الطبري، ج ٥ ص ٥٣٠.

« استحييت لك مما تريد، أنت كبير قريش وسيدها تصنع ما تصنع[١٧] ». أما ابن الأعثم، فيذكر أن رَوْح بن زِنباع هو الذي أشار على مروان أن يطلب هذا الأمر لنفسه « لأنه شيخ كبير بني أمية وهو ابن عم أمير المؤمنين عثمان[١٨] »، ذلك أن قسماً من أهل الشام من رؤوس قريش ومن بني أمية ومن أشراف أهل الشام كانوا مستعدين لتقبل عبد الله بن الزبير كخليفة، ولكنهم يجدون صعوبة في تقبل فكرة انتقال الملك من أهل الشام إلى أهل الحجاز[١٩]، وهذا الرفض نجده كذلك في رواية عُوانَة بن الحكم الذي يذكر أن الحصين بن نمير السكوني الذي كان محاصراً لمكة طلب مقابلة عبد الله بن الزبير بالأبطَح عندما بلغه خبر وفاة يزيد وأنه قال لابن الزبير: « إن يَكُ هذا الرجل قد هلك، فأنت أحق الناس بهذا الأمر، فهلم لنبايعك ثم أخرج معي إلى الشام فإن هذا الجند الذي معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم فوالله لا يختلف عليك اثنان »، ولكنه اشترط على عبد الله أن يهدر الدماء التي كانت بينهما والتي كانت بين أهل الشام وأهل الحرّة، فرفض عبد الله، فكان سعيد بن عمرو يقول: « ما منعه أن يبايعهم ويخرج إلى الشام الاّ تطير، وأن عبد الله لو سار معهم حتى يدخل الشام ما اختلف عليه اثنان[٢٠] ». ويبدو أن ابن الزبير ندم على الذي صنع، فأرسل إلى الحصين يبلغ أنه لن يسير إلى الشام لأنه يكره الخروج من مكة، ولكنه طلب منه أن يبايعوا له هنالك، وأنه مؤمنهم وعادل فيهم، ولكن الحصين بن نمير بيّن له صعوبة تحقيق مطلبه، لأنه إذا لم يقدم بنفسه، فإن هناك شخصيات قرشية أخرى ستطلب هذا الأمر لنفسها وستجد تأييداً من الناس إلى ذلك[٢١]، وقد حدث هذا فعلاً لأن رفضه لهذا الاقتراح، رجح كفة مروان بن الحكم الذي اعتلى عرش الخلافة دون أن يكون له بها أرب، إذ أن خروجه من الحجاز حين نفي مع بني أمية كان السبب البعيد لوصوله إلى هذا المنصب، ولو بقي في الحجاز لما عرفه أهل الشام ولما بايعوه، لا سيما وأن حسّان بن

---

(١٧) المصدر السابق، ج ٥ ص ٥٣٠.
(١٨) ابن الأعثم، فتوح، ج ٥ ص ٣١٢، ٣١٣.
(١٩) ابن قتيبة، الأمامة والسياسة، ج ٢ ص ١٢.
(٢٠) الطبري، ج ٥ ص ٥٠٩.
(٢١) الطبري، ج ٥ ص ٥٠٢.

مالك بن بحدل كان هواه مع مرشح من الفرع السفياني، ولكن أهل الأردن بالرغم من استعدادهم للوقوف إلى جانب حسان بن مالك ضد من خالفه من الناس وأطاع ابن الزبير، فإنهم رفضوا أن يكون الأمر لابني يزيد بن معاوية، عبد الله وخالد، «فانهما حديثة أسنانهما ونحن نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي[٢٢]». وكان مالك بن هبيرة السكوني كحسان بن مالك يهوى هوى بني يزيد بن معاوية لأن مروان كما قال مالك للحصين بن نمير «ليحسدنك على سوطك وشِراك نعلك وظل شجرة تستظل بها، إن مروان أبو عشيرة، وأخو عشيرة، وعم عشيرة، فإن بايعتموه كنتم عبيداً له[٢٣]». ومع ذلك فإن أهل الجابية من بني أمية ومن تبعهم وحسّان ورهطه اجتمع رأيهم في النهاية على أن يبايعوا لمروان، وكان روح بن زنباع الجذامي من أكثر المتحمسين لمروان إذ بيّن أحقية مروان بن الحكم بالخلافة وأنه لم يكن في الإسلام صدع قط إلا وكان مروان ممن يشعب ذلك الصدع، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار، واقترح أن يبايع الناس الكبير ويستشبوا الصغير، يعني بالكبير مروان بن الحكم وبالصغير خالد بن يزيد[٢٤].

وبالرغم من أن الضحاك كان قد مال بمن معه من الناس في بادىء الأمر يريد الجابية للقاء حسان بن مالك بن بحدل، إلا أنه لم يلبث أن غير موقفه بتأثير من ثَوْر بن مَعن بن يزيد بن الأخنَس السُلَّمي لأنه كما قال له ثور، إنما دعاهم إلى طاعة ابن الزبير فبايعوه على ذلك، أما التوجه إلى حسّان بن مالك فيعني مبايعتهم لمرشحهم أو من سيرشحونه، وهذا بدوره سيؤدي إلى سيطرة بني كلب وازدياد نفوذهم وهو أمر لا يتقبلونه، ولذلك مال الضحاك بمن معه من الناس حتى نزل مرج راهط[٢٥].

بعد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة في الجابية، توجه نحو مرج راهط في أهل الأردن من كلب وأتته السكاسك والسكون، وغسّان وربع حسان بن مالك بن

---

(٢٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ٥٣٦.
(٢٣) المصدر السابق، ج ٥ ص ٥٣٦.
(٢٤) المصدر السابق، ج ٥ ص ٥٣٧.
(٢٥) الطبري، ج ٥ ص ٥٣٤.

بجدل[٢٦] . ومن قصيدة يقال إن مروان أنشدها يوم بويع يتبين لنا أن القبائل التي أيّدت مروان كانت كلها يمانية وقضاعية ، كلب ، السكاسك ، طيء ، ألقين ، تنوخ ، والسكون ، وغسّان[٢٧] ، في حين أن القبائل التي أيدت الضحاك كانت قيسية ويمانيه ، إذ يذكر البلاذري أنه كان مع الضحاك خلق من أهل اليمن إلا أن قيساً كانوا رؤوس الناس وعددهم[٢٨] ، فقد استمد الضحاك النعمان بن بشير الأنصاري وهو على حمص فأمده بشرحبيل بن ذي الكلاع ، واستمد أيضاً زفر بن الحارث وهو على قنسرين فأمده بأهل قنسرين ، وأمده ناتل بأهل فلسطين فاجتمعوا عنده في مرج راهط ، فإذا قبلنا رواية خليفة بن خياط وابن عبد ربه لوجدنا أنه كان مع الضحاك ستون ألف مقاتل ومع مروان ثلاثة عشر ألفاً فقط[٢٩] ، في حين تشير رواية ابن الأعثم أن مروان كان في ثمانية عشر ألفاً أكثرهم جماعة اليمن ، وأن الضحاك بعد امداد بشير الأنصاري كان في ٢٢ ألفاً أكثرهم من قبائل قيس[٣٠] ، واعتقد أن الأرقام التي يذكرها ابن الأعثم أقرب إلى الواقع والمنطق من تلك التي ترد عند خليفة وابن عبد ربه ، لأننا إذا قبلنا أن الضحاك كان في ستين ألفاً فمعنى ذلك أن القبائل اليمانية التي كانت معه كانت أكثر من القيسية ، وهذا يتناقض مع الروايات التي تشير إلى أن الأكثرية مع الضحاك كانت قيسية ، وقد رأينا عند دراستنا لتوزع السكان أن العناصر اليمانية والقضاعية هي الغالبة في كل الأجناد ما عدا جند قنسرين ، التي كانت أكثريتها قيسية ، إلا أنه لا يمكن أن يصل عدد مقاتلته إلى أكثر من ٢٠ ألفاً ، وبالرغم من أن بعض الروايات تحاول التأكيد على كثرة القتلى من قيس ، فإن رواية عوانه بن الحكم تشير إلى أن أهل الشام قتلوا يومئذ مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها قط بين القبائل[٣١] .

---

(٢٦) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٧ ، ابن الاثير ، ج ٤ ص ١٤٥ .

(٢٧) الطبري ، ج ٥ ص ٥٣٨ ، البلاذي ، أنساب ، ج ٥ ص ١٣٨ ، ابن الأعثم ، فتوح ج ٥ ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٨٧ ، ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ١٤٩ النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ص ٨٥ .

(٢٨) البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ، ص ٣٠١ .

(٢٩) خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٣٢٦ ، ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٤ ص ٣٩٦ .

(٣٠) ابن الأعثم ، فتوح ، ج ٥ ص ٣١٣ .

(٣١) الطبري ، ج ٥ ص ٥٣٧ .

ما أن انتصر مروان في معركة مرج راهط حتى أطبق أهل الشام على مروان واستوثقوا له واستعمل عليها عماله[٣٢] ، وكان أول ما فعله مروان بعد أن استتب له الأمر في الشام أن توجه نحو مصر بقوات شامية[٣٣] ، مع عدد كبير من أشراف أهل الشام[٣٤] ، إذ أن أهمية مصر ظهرت في الواقع أثناء الصراع بين علي ومعاوية بسبب موقعها الفريد ومواردها الوافرة ، وترجيح كفة من يسيطر عليها ، ونجح مروان في استعادة مصر من أنصار عبد الله بن الزبير ثم غادرها أول رجب سنة ٦٥ هـ بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية للحكم الأموي وولّى عليها ابنه عبد العزيز بن مروان[٣٥] .

كان من نتيجة معركة مرج راهط ودعم حسان بن مالك أن بقيت مكانته ومكانة قبيلته رفيعة ، واشترط حسان بن مالك على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه يزيد منها أن يفرض لهم لألفي رجل ، ألفين ألفين ، وان مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه ، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي وصدر المجلس ، فرضي مروان[٣٦] ، كما اشترط الحصين بن نمير بن نايل الكندي ثم السكوني على مروان أن يُنزل البلقاء من كان بالشام من كندة ، وأن يجعلها لهم مأكله فأعطاه ذلك[٣٧] ، وكان لحسان بن مالك الدور الأكبر في جعل الخلافة بعد مروان لعبد الملك إذ فضل أن تنتقل الخلافة إلى أولاد مروان على أن تنتقل إلى عمرو بن سعيد الأشدق[٣٨] .

توفي مروان في شهر رمضان سنة ٦٥ هـ ، وانتقلت الخلافة إلى عبد الملك الذي كان عليه أن يواجه مشاكل عديدة استطاع أن يقضي عليها الواحدة بعد الأخرى ، إلا أن أهم أمر كان يشغله هو أمر عبد الله بن الزبير الذي دانت له البلدان كلها إلا الشام ومصر ، ومع ذلك لم يتعجل عبد الملك الأمور ، وانتظر حتى قضى مصعب بن الزبير

---

(٣٢) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٤٠ .
(٣٣) الكندي ، الولاة والقضاة ، ص ٤٦ .
(٣٤) المصدر السابق ، ص ٤٢ .
(٣٥) الطبري ، ج ٥ ص ٥٤٠ ، الكندي ، ص ٤٧ .
(٣٦) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٨٦ .
(٣٧) الطبري ، ج ٥ ص ٥٤٤ .
(٣٨) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٦١٠ .

على المختار بن أبي عبيد الثقفي[٣٩]، وبالرغم من أن القضاء على المختار كان سنة ٦٧ هـ فإن انتصار عبد الملك على مصعب ومقتله لم يتم إلا سنة ٧٢ هـ[٤٠]، لأن عبد الملك شغل بفتنة عمرو بن سعيد بن الأشدق الذي تحصّن في دمشق وأعلن العصيان أثناء خروج عبد الملك من دمشق يريد قرقيسيا وفيها زفر بن الحارث الكلابي[٤١]، أو لحرب مصعب، فاضطر عبد الملك إلى الرجوع، وجرى بينه وبين عمرو قتال انتهى إلى عقد الصلح بينهما، ولكن عبد الملك لم يلبث أن استدرج عمرو ابن سعيد إلى قصره وقتله، وذلك سنة ٦٩، أو ٧٠ هـ[٤٢]. كذلك اضطر عبد الملك لمصالحة الجَراجِمة الذين انضموا للروم في جبال اللُّكام على ألف دينار كل جمعة، وصالح طاغية الروم كذلك على مال يؤديه لكي يتفرّغ لحرب مصعب الذي دانت له أرض العراق وسائر البلدان فأصبح خطراً يهدد عبد الملك، ومن ثم جمع عبد الملك إخوته وأشراف أهل بيته وأوضح لهم قوة مصعب وأنه يخشى أن يغزوهم في عقر دارهم، «وأنه ما من قوم غزوا في عقر دارهم إلا وذلوا[٤٣]». فكانت نصيحتهم إليه أن يجمع رجاله ويعد عدته وأن يسير إلى خصمه قبل أن يسير خصمه إليه، «فوجه عبد الملك إلى كور الشام فاجتمع له جميع الأجناد[٤٤]». ويذكر المسعودي أن عبد الملك خرج في جند الشام ومصر والجزيرة[٤٥] بينما يذكر ابن الأعثم خروج عبد الملك في جند الشام ومصر[٤٦]، إلا أن الكندي لا يشير إلى اشتراك جند مصر إلا في القضاء على عبد الله ابن الزبير[٤٧]، ولذلك يمكن الاستنتاج بالاستناد إلى هذا الاختلاف الوارد في

---

(٣٩) المصدر السابق، ج ٦ ص ١٠٩ ــ ١١٦.

(٤٠) المصدر السابق، ج ٦ ص ١٦٠ وفي بعض الروايات أن مصعب قتل سنة ٧١ هـ.

(٤١) قرقيسيا، بلد على نهر الخابور، قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ، وعند مصب الخابور في الفرات، فهي في مثلث بين الخابور والفرات.

(٤٢) الطبري، ج ٦ ص ١٤٠، خليفة، ج ١ ص ٣٣٧.

(٤٣) الدينوري، الأخبار الطوال ص ٣١٠.

(٤٤) المصدر السابق، ص ٣١١.

(٤٥) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٠٥.

(٤٦) ابن الأعثم، ج ٦ ص ٢٦.

(٤٧) الكندي، ص ٥١.

الروايات، أن عبد الملك اعتمد بالدرجة الأولى على القوات الشامية لأنه قبل خروجه لقتال مصعب زحف على الجزيرة قاصداً زفر بن الحارث زعيم القبائل القيسية، وجرت بينه وبين زفر مفاوضات انتهت بعقد أمان بينهما، ويقال أن زفر خرج مع عبد الملك لحرب مصعب ولكنه لم يشترك في القتال[٤٨]، ويبدو أن هدف عبد الملك من هذه العملية كان أن يتجنب ما حدث لعبيد الله بن زياد وأن يحمي ظهره أثناء صراعه مع مصعب[٤٩]، لا شك أن توجه عبد الملك بنفسه لقتال مصعب[٥٠]، ودعم القوات الشامية له لعبا دورهما في الانتصار الذي حققه عبد الملك، ولكننا يجب أن نشير إلى أنه بالرغم من كفاءات مصعب بن الزبير القيادية العظيمة إلا أن أهل العراق خذلوه، إذ تباطأ البصريون بحجة أن الخوارج الحرورية برئاسة قطري بن الفجاءة قد نزلوا سوق الأهواز، وغدوا على مقربة من البصرة، وأن البصريين يخشون هجومهم على مدينتهم[٥١]. وإذا قبلنا رواية البلاذري نجد أنه يَدَّعي أن أشراف أهل العراق كتبوا إلى عبد الملك يدعونه إلى أنفسهم ويخبرونه أنهم مبايعوه، فلم يبق بالبصرة شريف إلا كاتبه غير المهلّب[٥٢]، وفي هذا الزعم، إذا صح، دلالة على يأس الأشراف في العراق من حكم ابن الزبير واعتقادهم بأن استقرار مصيرهم لن يتم إلا إذا ضبط لهم الأمور فيها شخص قوي كعبد الملك يستطيع أن يضع حدا لعهد طويل من الفوضى، أضرّ بمصالحهم وعطل أعمالهم وكبدهم الخسائر الكبيرة في الأرواح والأموال، وفتح باباً لأمور يعدونها خطيرة لا سيما ما جرى زمن المختار من علو مكانة الموالي ومساواتهم في العطاء مع الأشراف وإشراكهم في أموال ألفيء، وغير ذلك مما احتج عليه الأشراف ووقفوا ضد المختار بسببه[٥٣]، ومع ذلك نجد بعض الأشراف يتخوفون من ادخال أهل الشام

---

(٤٨) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٣٣٤، ٣٣٥.

(٤٩) نبيه عاقل خلافة بني أمية، ص ١٥٥.

(٥٠) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٣٣٥، اقترح البعض على عبد الملك أن لا يعمد إلى قيادة الجيش الموجه لقتال مصعب، فكان رده، أنه لو بعث إلى مصعب جميع أهل الشام، لفلّهم وفضهم مالم يكن معهم.

(٥١) المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٣٢

(٥٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٣٤.

(٥٣) نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ١٥٥.

عليهم، فهذا الأحنف بن قيس يقول لزياد بن عمرو العتكي: «أظنك والله يا زياد وأصحابك ستدخلون علينا ذلاً وبلاء عظيماً، أحسبكم والله ستدخلون علينا أهل الشام فيقتلونا وينزلون دورنا[٥٤]»، وهذا قيس بن الهيثم يقول لأهل البصرة «ويحكم لا تدخلوا أهل الشام عليكم، فوالله لئن تطعموا بعيشكم ليضيقن عليكم منازلكم[٥٥]». وهذا دليل على العصبية الإقليمية التي بدأت تظهر في هذه الفترة من صدر الإسلام.

بعد القضاء على مصعب ومقتله، سنة ٧٢ هـ وفقاً لأغلب الروايات، وأخذ عبد الملك البيعة من أهل العراق، وجه الحجاج بن يوسف الثقفي إلى عبد الله بن الزبير بمكة وسار في بقية أهل الشام إلى دمشق[٥٦]. ويذكر الواقدي أنه أرسل الحجاج ابن يوسف في ألفين ويقال في ثلاثة آلاف ويقال في خمسة آلاف من أهل الشام[٥٧]، أما ابن الأعثم فيذكر أن عبد الملك ضم للحجاج أثناء توجهه لقتال عبد الله بن الزبير ستة آلاف رجل، ألفين من أهل الشام وألفين من أهل مصر وألفين من فرض العراق[٥٨]. ولكننا عندما نتتبع سير الأحداث في المصادر نرى أن اعتماد الحجاج في القضاء على عبد الله بن الزبير كان وقفاً على أهل الشام، فقد توجه الحجاج بعد قضائه شهراً في الطائف إلى مكة وحصر ابن الزبير في المسجد وأرسل جماعة من أهل الشام إلى المدينة كي يستولوا على مقاليد الأمور فيها ويخرجوها من سلطان ابن الزبير[٥٩]، وكانت خطة الحجاج ترك الزبير محصوراً في الكعبة حتى يفنى ما معه من زاد فيضطر وصحبه للاستسلام، وفعلاً قل مخزون الطعام وارتفعت أسعار المواد الغذائية، ارتفاعاً

---

(٥٤) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٣٣٢.

(٥٥) المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٤٤.

(٥٦) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١١٠.

(٥٧) البلاذري، أنساب ج ٥ ص ٣٥٧، ويذكر ابن قتيبة أن عبد الملك أرسل الحجاج في ألف وخمسمائة رجل من رجال أهل الشام حتى نزل الطائف ثم جعل عبد الملك يرسل إليه الجيوش رسلاً، ابن قتيبة، الأمامة والسياسة ج ٢ ص ٢٤.

(٥٨) ابن الأعثم، فتوح ج ٦ ص ٢٧٢.

(٥٩) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٣٥٩، ٣٦٠.

فاحشاً، حتى بيعت الدجاجة بعشرة دراهم ومد الذرة بعشرين درهماً[٦٠]، بينما كانت العير تحمل إلى أهل الشام من عند عبد الملك السويق والكعك والدقيق[٦١]، ولما طال الحصار على ابن الزبير وجد أن لا فائدة ترجى من الاستمرار في الاعتصام بالكعبة فخرج منها وقاتل حتى سقط قتيلاً بعد أن انفض عنه الكثير من أصحابه[٦٢]، ونفهم من رواية ابن سعد عن محمد بن عمر أن أجناد الشام الخمسة اشتركت مع الحجاج في قتال عبد الله بن الزبير[٦٣] كما اشتركت في قتال مصعب، وهكذا نرى أن دعم أهل الشام لعبد الملك ساعده على ضم المناطق المختلفة المنشقة إلى حظيرة الحكم الأموي، واستتب الأمر لعبد الملك بعد أن تخلص من الحركة الزبيرية، هذه الحركة التي طال أمدها وظلّت نارها مشتعلة مدة ثلاثة عشر عاماً من سنة ٦٠ هـ إلى ٧٣ هـ، كما انتهى بانتهاء ابن الزبير عهد الحجاز باعتباره مقر الخلافة وعاصمتها.

ما أن انتهى عبد الملك من القضاء على عبد الله بن الزبير، حتى عمد إلى جمع شتات القبائل التي فرّقتها أحداث الفتنة الثانية، إذ أن موقعة مرج راهط كانت الشرارة الأولى لحروب ووقائع عنيفة بين قبيلتي قيس وتغلب من ناحية، وبين قيس وكلب من ناحية أخرى، إذ أن قبيلتي كلب وتغلب كانتا مروانية وكانت قيس زبيرية[٦٤]، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن هذه الوقائع جرى معظمها على أطراف البادية، فقد كانت منازل كلب البادية تتاخم منازل بطون قيس التي نزلت بالجزيرة وجلها من بني سليم وبني عامر بن صعصعة، أما الوقائع بين قيس وتغلب فقد جرى معظمها في الجزيرة. وقد استطاع عبد الملك بالحزم تارة، والمداراة تارة أخرى، أن يوطد الأمن في المنطقة كلها كما استطاع بعد أن استتب له الأمر أن يسلك طريقاً وسطاً في ميدان العصبيات،

---

(٦٠) المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٦١.

(٦١) المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٦٠، الطبري، ج ٦ ص ١٧٥.

(٦٢) الطبري، ج ٦ ص ١٨٨، ابن الأثير، ج ٤ ص ٣٥٢ ــ ٣٥٥.

(٦٣) الطبري، ج ٦ ص ١٩٠، ابن الأثير، ج ٤ ص ٣٥٤.

(٦٤) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٣٠٨ ــ ٣١٤.

فأدت سياسته إلى التخفيف من غلواء السيطرة اليمانية التي عبر عنها عُويج الطائي بقوله:

فلـــــولا أمير المؤمـــــنين لأضحت
قضاعـة أربابـاً وقـــيس عبيدهـــا[٦٥]

وقد أدى هذا الموقف إلى ترك القيسية سياسة المقاومة لعبد الملك الذي قرّب رجالها وسدّدهم من الأمور ما وسّد خصومهم من اليمانية، فكان زُفَر بن الحارث وأبناؤه هذيل وكوثر من بعده من أكبر الشخصيات وأعظمها جاها في بلاط دمشق[٦٦]، كما أشعر الكلبيين واليمانيين أنهم لا يزالون موضع اهتمامه، وأنهم لا يقلون أهمية عنده من القيسيين كابن بحدل وروح بن زنباع الجذامي[٦٧] وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي من الأزد[٦٨]، أما في مجال الشعر والشعراء فلم يكن عبد الملك يأذن في بادىء الأمر ولا يسمع من شعراء مضر لأنهم كانوا زبيرية، ولم يأذن لجرير إلا بعد تدخل من الحجاج[٦٩]، الذي أعلم عبد الملك أنه لم يكن ممن والى ابن الزبير وأنه لم ينصره بيده ولا بلسانه، ومع ذلك بقي عبد الملك مفضلاً للأخطل التغلبي (من قبائل ربيعة) ولعدي بن رقاع العاملي[٧٠].

## دور أهل الشام في دعم ولاة بني أمية في العراق

كان من نتائج انتقال الحكم إلى البيت الأموي انتقال مركز الثقل السياسي والإقتصادي من العراق إلى الشام، ذلك أن العراق كان خلال خلافة علي بن أبي

(٦٥) الطبري، ج ٥، ص ٥٤٤.
(٦٦) النويري، نهاية الأرب، ج ٢١، ص ١٣١.
(٦٧) الطبري، ج ٦ ص ٤١٢، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٥ ص ٣٤٠.
(٦٨) الطبري، ج ٦ ص ٤١٢، ابن عبد ربه، العقد، ج ٣ ص ٣٨٢.
(٦٩) الأغاني، ج ٨، ص ٦٦، ٦٧.
(٧٠) المصدر السابق، ج ٨ ض ٨٠.

طالب وأثناء صراعه مع معاوية مستقراً له ومقراً لحكمه، وكان أهله شيعة له، ولولا التحكيم، وانشقاق الخوارج، وماتلاه من عملية الاغتيال الغادر التي تعرّض لها علي بن أبي طالب لكانت سيادته سيادة حقيقية، لا ينازعها منازع، فإذا أضفنا إلى ذلك أن القبائل العربية التي هاجرت إلى العراق أثناء الفتح كانت في غالبيتها من قبائل الردة الذين ثاروا أصلاً على فكرة الحكم المركزي، وأن هذه القبائل لم تنكسر حدة تمردها القبلي نتيجة لسكناها في معسكرات خاصة كالبصرة والكوفة، لأدركنا سبب ذلك الصراع الذي قام خلال هذا العصر بين السلطة المركزية المتمثلة بالخلافة الأموية من جهة ورجالات القبائل والشيعة والخوارج من جهة أخرى، وليس مجال بحثي التعرض إلى هذه الحركات والثورات التي نجد لها تفصيلاً وافياً في المصادر والمراجع، وإنما غايتي إظهار مدى اعتماد ولاة بني أمية في العراق على القوات الشامية في الفترة المروانية، بحيث أصبح الاعتماد وقفاً عليها وحدها أحياناً.

### آ ـــ مقاتلة الشام ودورهم في قمع حركات الخوارج في العراق

أثار الخوارج في وجه الخلافة الأموية الفتن والقلاقل، ومما زاد في خطورتهم أنهم لم يجتمعوا على خلافة توحد كلمتهم وتجمع شملهم، بل أخذت جموعهم المتفرقة في أنحاء الدولة تقلق الولاة وتناوئهم، فاستغرق ذلك جهودهم، وقد أجبر معاوية أهل الكوفة عندما ثار فروة بن نوفل الأشجعي ومعاوية في النُّخيَلة أن يعمدوا إلى محاربة الخوارج مهدداً إياهم أن لا أمان لهم عنده حتى يكفوا بوائقهم[٧١]. فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم، واتبع المُغيرة بن شُعبة الأسلوب نفسه عند خروج المستورد بن عُلّفة، إذ جمع الناس وخطب فيهم بعد أن حمد الله واثنى عليه «أما بعد فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية وأكف عنكم الأذى.... وقد ذكر لي أن رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف، وأيم الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدتهم وجعلتهم نكالاً لمن بعدهم[٧٢]». وطلب

(٧١) الطبري، ج ٥ ص ١٦٥.

(٧٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ١٨٤.

المُغيرة من كل امرىء من الرؤساء أن يكفه قومه وإلا فإنه سيغير سياسته تجاههم[٧٣]، وكان أكثر الناس تحمساً لقتالهم صَعْصَعة بن صَوْحان من أتباع علي الذي بيّن لقومه عبد القيس، أنه لا قوم أعدى لله ولأهل بيت الرسول ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة الذين فارقوا الإمام علي واستحلوا دماء أتباعه وشهدوا عليهم بالكفر، وحذرهم أن يؤوا أحداً في دورهم، ثم وجه المغيرة فرسان أهل الكوفة، وكان قد أمر بانتخابهم انتخاباً وجعل على رأسهم معقل بن قيس وطلب منه أن يسير إليهم وأن يدعوهم للتوبة وإلى الدخول في الجماعة وأن يقبل منهم ان فعلوا[٧٤]. ومما يثير الانتباه أن أهل كل مصر كانوا مسؤولين عن مناجزة الخوارج في مصرهم[٧٥]، فلما جاء الحجاج أبطل ذلك وكتب إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذي كان قد أرسله لملاحقة شبيب، أن يطلب شبيباً ويسلك في أثره أين سلك حتى يدركه فيقتله أو ينفيه فإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين، وذلك أنه عندما وصل شبيب دقوقاء وشهرزور، قال عبد الرحمن، إنما هو أرض الموصل فليقاتلوا عن بلادهم أو ليدعوه[٧٦]. ان نظرة الحجاج هذه هي التي دفعته فيما بعد إلى الاستنجاد بجند الشام، فالولايات بالنسبة إليه وحدة متماسكة، فلا عراق ولا شام ولا مصر ولا حجاز وإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين، فإذا أخفق مقاتلة مصر في الدفاع عن نفسه ومواجهة عدوه فلا بأس من الاستنجاد بغيره، ومن ثم هدد الحجاج أهل الكوفة قائلاً: «أيها الناس، والله لتقاتلن عن بلادكم وعن فيئكم، أو لأبعثنّ إلى قوم هم أطوع وأسمع وأصبر على اللأواء والغيظ

---

(٧٣) المصدر السابق، ج ٥ ص ١٨٤.

(٧٤) المصدر السابق، ج ٥ ص ١٨٩.

(٧٥) المصدر السابق، ج ٥ ص ١٩٩ ــ ٢٠٠.

(٧٦) الطبري، ج ٦ ص ٢٥٠: كان صالح بن مسرح وجماعته من الخوارج الصفرية قد خرجوا سنة ٧٦ هـ، وانضم إلى صالح شبيب بن يزيد وجماعته في أرض الجزيرة، وهزموا جيشاً أرسله محمد بن مروان أمير الجزيرة، فأرسل جيشين آخرين أجبرا صالح على الخروج من الجزيرة إلى أرض الموصل، فأرسل الحجاج عند ذلك الحارث بن عميرة الهمداني في ثلاثة آلاف رجل من أهل الكوفة وقتل في المعركة صالح (الطبري ج٦ ص٢٤٣) واستلم شبيب القيادة، واتسعت رقعة نفوذه، وقد وصل أمره أنه استطاع دخول الكوفة ومعه زوجته غزالة، وكان الحجاج بالبصرة، فلما سمع بتوجه شبيب إلى الكوفة طوى الحجاج المنازل فوصلها صلاة الظهر، ونزل شبيب السبخة صلاة المغرب (الطبري ج ٦ ص ٢٤٠).

منكم فيقاتلون عدوكم ويأكلون فيئكم[٧٧] ». وكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره أن شبيباً شارف المدائن يريد الكوفة وأن أهل الكوفة قد عجزوا عن قتاله في مواطن كثيرة في كلها يقتل أمراءهم، ويذل جنودهم، « فان رأي أمير المؤمنين أن يبعث إلى أهل الشام فيقاتلوا عدوهم ويأكلوا بلادهم فليفعل والسلام »، فلما أتى عبد الملك كتابه بعث إليه سفيان بن الأبرد الكلبي[٧٨]، في أربعة آلاف وحبيب بن مَذْحِج في ألفين[٧٩]، فاستغنى بهم الحجاج عن أهل الكوفة، وقام على المنبر فقال: « يا أهل الكوفة لا أعز الله من أراد بكم العز ولا نصر من أراد بكم النصر، أخرجوا عنا فلا تشاهدوا معنا قتال عدو، وأنزلوا الحيرة مع اليهود والنصارى، ولا يقاتل إلا من لم يشهد قتال عَتَّاب بن ورقاء[٨٠] ».

وعندما توجه شبيب نحو الكوفة للمرة الثانية، صمد جند الشام أمام كتائب شبيب الواحدة بعد الأخرى، وكان الحجاج يصيح بهم قائلاً: « يا أهل السمع والطاعة والصبر واليقين، لا يغلبّن باطل هؤلاء الأوجاس حقكم[٨١] ». وقرر شبيب أن يأتي الحجاج من ورائه، ولكن الحجاج كان قد جعل عروة بن المغيرة بن شعبة في نحو ثلثمائة رجل من أهل الشام ردءاً له ولأصحابه لئلا يؤتوا من ورائه[٨٢]، ونجح الحجاج يومئذ من

---

(٧٧) المصدر السابق، ج ٦ ص ٢٥٨.

(٧٨) سفيان بن الأبرد الكلبي داره بجيرون وكان له سوق الصاقلة قطيعة، وغزا سفيان القسطنطينية مع يزيد بن معاوية وكان من قادة بني أمية، (ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٢٧. تهذيب، ج ٦ ص ١٨٢ م.

(٧٩) الطبري، ج ٦ ص ٢٥٨.

(٨٠) ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٢٣، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ١٨٨. وكان الحجاج قد أمر أهل الكوفة بالانضمام إلى عتاب بن ورقاء، وأنه لا يسمح لأحد من الناس بالاقامة إلا رجلاً قد ولاه عملاً، وبين لهم أن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة، وأن للناكل الهوان والجفوة، وهددهم بأنهم إذا فعلوا في هذه المواطن كفعلهم في المواطن الأخرى ليولينهم كنفاً خشناً وليعركنهم بكلكل ثقيل (الطبري ج ٦ ص ٢٦٢) ولكن أهل الكوفة لم يثبتوا مع عتاب وانفضوا من حوله وقتل عتاب بن ورقاء وقائده زهرة بن حوية (الطبري ج ٦ ص ٢٦٥).

(٨١) الطبري، ج ٦ ص ٢٦٩، ٢٧١.

(٨٢) ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٢٧.

هزيمة شبيب، وقتل أخو شبيب وقتلت غزالة امرأته، ودخل الحجاج الكوفة[٨٣]، وبين لأهلها أن شبيباً لم يقاتل قبلها، فلما جاء جند الشام ولّى هارباً، ثم دعا الحجاج حبيب بن عبد الرحمن الحَكَمي وبعثه في أثره في ثلاثة آلاف من أهل الشام واشتبك معهم عند الأنبار وأثخن فيهم الجراح، فاضطر شبيب إلى أن يتراجع إلى الأهواز ففارس ثم كرمان[٨٤]، وبعد أن استراح شبيب في كرمان أقفل راجعاً فالتقى مع سفيان بن الأبرد الكلبي الذي كان الحجاج قد أرسله للقضاء على شبيب بجسر دُجَيل الأهواز، فاقتتلوا أشد قتال، وحمل شبيب على أهل الشام أكثر من ثلاثين حملة وأهل الشام على حالهم في ثبات القدم، واستمر القتال حتى اختلط الظلام ثم انصرف، فلما انتهى شبيب إلى الجسر طلب من أصحابه أن يعبروا الجسر ثم يعودوا للهجوم باكراً في اليوم التالي، فعبروا أمامه وتخلف في آخرهم، فنزا فرسه، فسقط في الماء وغرق، فكان مصرعه سنة ٧٧ هـ أو سنة ٧٨ هـ[٨٥].

وهكذا نجح أهل الشام في القضاء على ثورة شبيب الخارجي التي تعتبر من أعنف الحركات الخارجية، وقد عيّر الحجاج أهل الكوفة بأنه وجه لقتال شبيب خمسة وعشرين أمير جيش، وكل له مكانته، فيقتل أميرهم وهم وقوف ينظرون إليه لا يرون له حرمة في صحبة ولا ذماماً في طاعة[٨٦]، كما أرسل الحجاج سفيان بن الأبرد مع جيش كبير من أهل الشام في طلب قَطَرى بن الفُجاءَه، ذلك أنه بعد تشتت أمر الأزارقة نتيجة للاختلاف الذي حدث بينهم بكَرْمان وصار بعضهم مع عبد ربه الكبير وبعضهم مع قَطَرى، ضعف أمر قطرى الذي توجه يريد طبرستان، فأقبل سفيان حتى أتى الري ثم اتبعهم، وكتب الحجاج إلى اسحاق بن محمد بن الأشعث وهو على جيش لأهل الكوفة بَطَبَرِستان أن يسمع ويطيع لسفيان، فأقبل إلى سفيان وسار معه في طلب قطرى حتى لحقوه في شعب من شعاب طَبَرِستان، فقاتلوه فتفرق عنه

(٨٣) الطبري، ج ٦ ص ٢٧٧.
(٨٤) ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٢٧، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١، ص ١٨٩.
(٨٥) الطبري، ج ٦ ص ٢٧٩، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ١٩٠.
(٨٦) ابن قتيبة، الأمامة والسياسة، ج ٢ ص ٣٢.

أصحابه، ووقع عن دابته فهوى حتى خرّ إلى أسفله، وادّعى قتله عدد من أهل الكوفة[٨٧].

وهدأت حركات الخوارج نتيجة لقضاء المهلب على فرقة الأزارقة من جهة وقضاء الحجاج على حركة شبيب، فلما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ــ ١٠١ هـ) خرج شوذب[٨٨] على عبد الحميد بن عبد الرحمن والي الكوفة، فأمر عمر بن عبد العزيز واليه أن لا يبادئهم القتال إلا إذا أفسدوا في الأرض، وكتب عمر إلى بُسطام يدعوه ليسأله عن سبب خروجه كما طلب منه أن يناظره، فبعث إليه بسطام برجلين يناظرانه[٨٩]، ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز توفي قبل أن يقتنع الخارجيان بوجهة نظره، وأراد عبد الحميد بن عبد الرحمن أن يحظى عند يزيد بن عبد الملك (١٠١ ــ ١٠٥ هـ) فكتب إلى محمد بن جرير البَجَلي يأمره بمحاربة شوذب وأصحابه، وكان معه ألفان من أهل الكوفة، فلما هزم هؤلاء اضطر يزيد أن يرسل من قِبَلِهِ تميم بن الحُباب في ألفين، ثم نجدة بن الحكم الأزدي ثم الشَحَّاج بن وَدَّاع في ألفين كذلك، ولكن شوذب استطاع أن يهزمهم الواحد تلو الآخر، فلما دخل مسلمة بن عبد الملك الكوفة شكا إليه أهلها مكان شوذب وما قد قتل منهم فدعا مسلمة سعيد ابن عمرو الحرشي من قادة الشام فعقد له على عشرة آلاف فارس فتمكن من أن ينتصر على الخوارج وقتل شوذب سنة ١٠١ هـ[٩٠].

وفي سنة ١١٩ هـ خرج بهلول بن بشر المُلقَّب بكثارة، وهو من الموصل من بني شيبان، ولما علم خالد بن عبد الله القسري والي العراق (١٠٥ ــ ١٢٠ هـ) بخروجه، خرج من واسط وأتى الحيرة، وكان بها جند قد قدموا من الشام مدداً لعامل الهند، فأمرهم خالد بقتاله ووعد من يقتل منهم رجلاً أن يعطيه عطاء سوى ما أخذ في

---

(٨٧) الطبري، ج ٦ ص ٣٠٩، ٣١٠.

(٨٨) اسمه بسطام من بني يشكر، وكان مخرجه بجوخى في ثمانين فارساً أكثرهم من ربيعة، وجوخى كورة واسعة في سواد بغداد. (الطبري ج ٦ ص ٥٥٥).

(٨٩) الطبري، ج ٦ ص ٥٥٥، ٥٥٦.

(٩٠) الطبري، ج ٦ ص ٥٧٦.

الشام وأن يعفيه من الخروج إلى الهند، فسارعوا إلى ذلك، ولكن بهلول هزمهم وزحف يريد الخليفة هشام في الشام، عند ذلك سير خالد جنداً من العراق وسير عامل الجزيرة جنداً من الجزيرة ووجه هشام جنداً من الشام واجتمعوا بدير بين الجزيرة والموصل، وقتل بهلول في المعركة[٩١].

## ب ــ مقاتلة الشام ودورهم في القضاء على ثورتي ابن الأشعث (٨١ ــ ٨٥ هـ) ويزيد بن المهلب (١٠١ ــ ١٠٢ هـ)

بالإضافة إلى حركات الخوارج، اضطر ولاة العراق لمجابهة ثورات كان بعضها من العنف بحيث عرّض الدولة الأموية لأزمات قاسية واضطر الولاة إلى الاعتماد على الجند الشامي في سبيل إخمادها.

من أهم هذه الثورات، ثورة ابن الأشعث الذي كان الحجاج قد أرسله مع معظم مقاتلة الكوفة والبصرة للقضاء على ثورة رتبيل في سجستان، فلما ثار ابن الأشعث وخلع جنده الحجاج ثم عبد الملك، ووصل حتى نزل الأهواز، جمع الحجاج الناس وخرج في جيش كبير حتى نزل على سبعة فراسخ من الأهواز ودعا بعبد الله بن رُمَيثة الطائي من أهل حمص، ومَظْهر بن مُر العَكّي من أهل الأردن فضم إليهما ثمانية آلاف فارس[٩٢]، ولكن هذا الجيش هزم عند دُجَيل الأهواز[٩٣]، وتقدّم ابن الأشعث متوجها نحو البصرة، وبلغ ذلك الحجاج، فقطع جسر الأُبُلّه، وضم الأسواق، ووجه نداءه إلى أهل الشام، أن لا يتركوا بالمكلاّ شيئاً من العلف والطعام إلا ونقلوه إلى العسكر، «فإنما الناس أحد رجلين، فمن لحق بنا أعطيناه من طعامه وعلفه ومن لحق بعدونا فدمه حَلال لنا[٩٤]».

وفي معركة الزاوية سنة ٨١ هـ كان الحجاج يومئذ في ثلاثة وعشرين ألفاً من أهل

---

(٩١) ابن الأثير، ج ٥ ص ٢١٠، ٢١١، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٤٤٧.

(٩٢) ابن الأعثم، فتوح، ج ٧ ص ١٣٠.

(٩٣) الطبري، ج ٦ ص ٣٤٠، ٣٤١.

(٩٤) ابن الأعثم، فتوح، ج ٧ ص ١٣٢، ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٦٥.

الشام ومن تبعه من أهل العراق، وابن الأشعث في زهاء ستين ألفاً[٩٥]، ولعب سفيان ابن الأبرد الكلبي مع جند الشام دوراً كبيراً في هزيمة ابن الأشعث في وقعة الزاوية، ومكّن الحجاج من الدخول إلى البصرة، فاضطر عبد الرحمن للتوجه نحو الكوفة حيث استطاع أن يدخلها ويحتوي على بيت مال الحجاج[٩٦]، وعندما سمع الحجاج بذلك توجه نحو الكوفة وعسكر بدير قرّه[٩٧]، واجتمع إلى عبد الرحمن أهل الكوفة، وأهل البصرة، والقرّاء وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم، فكانوا مائة ألف ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم[٩٨]، وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان فأرسل إلى الحجاج أشراف أهل الشام والجزيرة مدداً له في سبعين ألفاً[٩٩]، ولكن عندما اشتد القتال بين الطرفين وجد عبد الملك ورؤوس قريش وأهل الشام أنه إذا كان يرضي أهل العراق أن ينزع عنهم الحجاج، فان نزع الحجاج أيسر من حرب أهل العراق، فبعث ابنه عبد الله بن عبد الملك وبعث إلى أخيه محمد بن مروان بأرض الموصل يأمره بالقدوم عليه وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج، وأن يجري عليهم أعطياتهم كما تجري على أهل الشام وأن ينزل ابن محمد أي بلد من عراق شاء يكون عليه والياً ما دام حياً وعبد الملك خليفة، فإن هم قبلوا ذلك عزل عنهم الحجاج وكان محمد بن مروان أمير العراق، وان أبوا فالحجاج أمير جماعة أهل الشام وولي القتال، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعته[١٠٠]، أما ابن الأعثم فيضيف إلى هذه الشروط شرطاً آخر وهو أن عبد الملك وعدهم بإخراج أهل الشام من بلادهم «ولا يرى العراق شاماً أبداً[١٠١]».

رفض العراقيون شروط عبد الملك بالرغم من أن عبد الرحمن كان يفضل

---

(٩٥) المصدر السابق، ج٧ ص ١٣٤.

(٩٦) ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٦٧، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٢٣٧.

(٩٧) الطبري، ج ٦ ص ٣٤٧، ابن الأعثم، فتوح، ج ٧، ص ١٣٤.

(٩٨) الطبري، ج ٦ ص ٣٤٧، ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٦٩.

(٩٩) ابن الأعثم، ج ٧ ص ١٣٧.

(١٠٠) الطبري، ج ٦ ص ٣٤٧، ٣٤٨، ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٦٩، ٤٧٠، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٢٣٩.

(١٠١) ابن الأعثم، ج ٢ ص ١٣٧.

قبولها[١٠٢]، واعتمد الحجاج اعتماداً كلياً على قادة الشام، فجعل في ميمنته عبد الرحمن ابن سليم الكلبي، وعلى ميسرته عمارة بن تميم اللخمي، وعلى خيله سفيان بن الأبرد الكلبي، وعلى رجاله عبد الله بن حبيب الحكمي[١٠٣]، وبالرغم من أن أهل العراق كانت تأتيهم موادهم من الكوفة وسوادها وهم في خصب وأهل الشام في ضنك شديد، قد غلت عليهم الأسعار وفقد عندهم اللحم[١٠٤] فقد استطاعوا التغلّب على عبد الرحمن بعد أن دامت الحرب مائة وثلاثة أيام[١٠٥]، وكان لسفيان بن الأبرد كذلك الدور الأكبر في هزيمة عبد الرحمن في دير الجماجم[١٠٦].

بعد هزيمة عبد الرحمن، دخل الحجاج الكوفة وأقام فيها شهراً، وهناك روايات تشير إلى أنه أنزل أهل الشام بيوت أهل الكوفة، «أنزلهم الحجاج فيها مع أهلها»، وأن الحجاج أول من أنزل الجند في بيوت غيرهم، وأن هذه القاعدة استمرّت بعده[١٠٧]، في حين يذكر الطبري أن الحجاج بعد وقعة الجماجم عزل أهل الشام عن بيوت أهل الكوفة[١٠٨]، وأمر أن لا ينزل أحد على أحد وأن يخرج الجند فيعسكروا[١٠٩]، وبعث الحجاج رواداً يرتادون منزلاً فوقع اختياره على واسط[١١٠]، وعندما انتهى من بناء

(١٠٢) الطبري، ج ٦ ص ٣٤٨، ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٧١، وقد بين ابن الأشعث لاتباعه أهمية هذه الفرصة التي يجب عليهم أن ينتهزوها قائلاً لهم: «فقد أعطيتم أمرا انتهازكم اليوم إياه فرصة، ولا آمن أن يكون على ذي الرأي غداً حسرة، وأنكم اليوم على النصف، وان كانوا اعتدّوا بالزاوية، فأنتم تعتدّون بيوم تستر، فاقبلوا ماعرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء، والقوم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون فلا والله لا زلتم عليهم حرّاء، ولا زلتم عندهم أعزاء، ان أنتم قبلتم أبدا ما بقيتم»، فوثب الناس من كل جانب فقالوا: ان الله قد أهلكهم، فأصبحوا في الأزل والضنك والمجاعة والقلة والذلة، ونحن ذو العدد الكثير، والسعر الرفيغ، والمادة القريبة، لا والله لا نقبل.

(١٠٣) المصدر السابق ج ٦ ص ٣٤٩، ابن الأثير ج ٤، ص ٤٧١.

(١٠٤) ابن الأثير، ج ٤، ص ٤٧٢.

(١٠٥) المصدر السابق، ج ٤ ص ٤٨٠.

(١٠٦) المصدر السابق، ج ٤ ص ٤٨١.

(١٠٧) النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٢٤٨، ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٨١.

(١٠٨) الطبري، ج ٦ ص ٣٦٥.

(١٠٩) المصدر السابق، ج ٦ ص ٣٨٤.

(١١٠) المصدر السابق، ج ٦ ص ٣٨٤، ويذكر اليعقوبي أنها سميت واسطا لأنها إلى البصرة خمسين فرسخا ←

واسط، نقل إليها من وجوه أهل البصرة وأمرهم أن يصلوا على يسار المقصورة، ونقل إليها من وجوه أهل الكوفة وأمرهم أن يصلوا عن يمين المقصورة، وأمر من كان معه من أهل الشام أن يصلوا بحياله مما يلي المقصورة[١١١].

إن هزيمة ابن الأشعث في دير الجَماجِم سنة ٨٣ هـ في مَسْكِن في نفس العام كانت نقطة النهاية بالنسبة إليه، إذ أنه تراجع إلى السوس، ولم يزل عمارة بن تميم اللخمي في جيشه الكثيف من أهل الشام والجزيرة يهزمه حتى بلغ إلى سابور فارس، حيث اقتتلوا وانهزم ابن الأشعث نحو بلاد كَرْمان، وكتب عمارة بن تميم إلى الحجاج بانهزامه فأمره بالعودة[١١٢].

وعندما التجأ ابن الأشعث إلى رُتْبيل ثانية بعد انصرافه من هَرَاة، كتب الحجاج إلى رتبيل بأنه سيوجه إليه بعمارة بن تميم اللخمي في ثلاثين ألفاً من أهل الشام لم يخلعوا طاعة ولم يبايعوا إمام ضلالة يستعظمون الحرب استعظاماً، ويقدمون عليها إقداماً، وطلب من رتبيل أن يعمد إلى تسليم ابن الأشعث إليهم[١١٣]، ولكن رتبيل لم يسلمهم ابن الأشعث سنة ٨٥ هـ إلا بعد أن وافق الحجاج على شروط رتبيل ألا تغزى بلاده عشر سنين وأن يؤدي بعد العشر سنين في كل سنة مائة ألف[١١٤]. وخاطب الحجاج أهل الكوفة بعد القضاء على ثورة ابن الأشعث، ونَدّد بهم ووصفهم بأنهم أهل الشقاق والاختلاف والنفاق، وامتدح أهل الشام بأنهم العدة والعدد والجُنَّة في

---

وإلى الكوفة خمسين فرسخا وإلى الأهواز خمسين فرسخا، وإلى بغداد خمسين فرسخا (اليعقوبي، البلدان ص ٣٢١، ياقوت الحموي، ج ٥ ص ٣٤٨).

(١١١) أسلم بن سهل الرزاز الواسطي المعروف ببحشل، تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد، ص ٤٣.

(١١٢) ابن الأعثم، فتوح، ج ٧، ص ١٥٠.

(١١٣) الطبري، ج ٦ ص ٣٩٠، ابن الأعثم، ج ٧ ص ١٥٠، عندما توجه ابن الأشعث سنة ٨٣ هـ اثر هزيمته إلى سجستان، أنزله رتبيل عنده وأكرمه وعظمه، ولكنه لم يلبث أن وقع تحت تأثير أتباعه الذين بلغ عددهم ٦٠ ألفاً بأن يتوجه إلى خراسان بالرغم من وجود يزيد بن المهلّب بها لأنها أرض طويلة عريضة، وأن من سيتبعهم سيكون أكثر ممن سيقاتلهم، فلما بلغوا هراة فارقه عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمره القرشي في ألفين، فقرر العودة إلى رتبيل لأنه تبيّن له أنه لا يستطيع الاعتماد عليهم، وأنهم سيتفرقون عنه كما فعلوا في مواطن أخرى.

(١١٤) الطبري، ج ٦ ص ٣٩١.

الحرب[١١٥]، ويذكر أبو هلال العسكري أن الحجاج هو أول من أطعم على ألف مائدة، على كل مائدة عشرة رجال وعليها جنب شواء وثريد وسمكة، وبرنية[١١٦] فيها عسل، وكان الحجاج وفق هذه الرواية لا يطعم إلا شامياً[١١٧].

بالإضافة إلى ثورة ابن الأشعث ساهم الجند الشامي في القضاء على ثورة يزيد ابن المهلّب التي تعتبر من أهم الأحداث الداخلية زمن يزيد بن عبد الملك (١٠١ ــ ١٠٥ هـ)، وكان لصلة المصاهرة التي تربط هذا الخليفة بأسرة الحجاج أثرها في إساءة العلاقة بينه وبين المهلّب، لأن ابن المهلّب حين ولي العراق لسليمان ابن عبد الملك (٩٦ ــ ٩٩ هـ) عذّب آل الحجاج، فعاهد يزيد بن عبد الملك الله لئن مكنه من يزيد بن المهلّب ليقطعنّ منه طابقاً[١١٨]، ويذكر أبو مخنف أنه حين بلغ ابن المهلّب وهو في محبسه زمن عمر بن عبد العزيز أن الخليفة مريض، وأن الخلافة ستؤول بعده إلى يزيد بن عبد الملك، دبّر أمر هربه من السجن. أما الواقدي، فيزعم أن يزيد بن المهلّب إنما هرب من سجنه بعد موت عمر[١١٩]، وتوجه يزيد إلى البصرة موطن أسرته من المهالبة ومستقر قبيلته أزد عمان، وتمكن من السيطرة عليها وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها وهو عدي بن أرطاة الفزاري فحبسه، وخلع يزيد بن عبد الملك، ودعا أهل البصرة إلى كتاب الله وسنة نبيه محمد (صلعم) وحثهم على الجهاد وزعم أن جهاد الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم[١٢٠]، وبالرغم من أن الحسن البصري لم يكن راضياً عن أهل الشام وخلفاء بني أمية، إلا أنه أيضاً لم يكن راضياً عن يزيد وثورته، إذ قال: «عجباً من يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين اتبعوه تقرّباً إلى بني مروان حتى إذا منعوه شيئاً من دنياهم وأخذوه بحق الله تعالى عليه، غضب، فعقد خرقاً على قصب، ثم نعق بأعلاج وطغام فاتبعوه، وقال: إني قد خالفت هؤلاء

(١١٥) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٣٢، ١٣٣.
(١١٦) البرنية اناء من خزف.
(١١٧) أبو هلال العسكري، الأوائل، ج ٢ ص ٦٣، ٦٤.
(١١٨) الطبري، ج ٦ ص ٥٦٤.
(١١٩) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٦٤، ٥٦٥.
(١٢٠) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٦٧.

فخالفوهم، فهو يزعم أنه يدعوهم إلى كتاب الله تعالى وسيرة الخلفاء الراشدين، ألا وان سيرة الخلفاء الراشدين أن يوضع في رجله قيد ويرد إلى حبس عمر[١٢١]». وكان يشارك الحسن البصري في الرأي، النَضْر بن أَنَس بن مالك، الذي قال: «يا عباد الله ما تنقمون من أن تجيبوا إلى كتاب الله وسنة نبيه (صلعم) فوالله ما رأينا ذلك وما رأيتموه منذ ولدتم، إلا هذه الأيام من إمارة عمر بن عبد العزيز[١٢٢]».

ونفهم مما ذكره الحسن البصري بأن الذين اتبعوا يزيد هم من الأعلاج والطغام، بمعنى أن رؤوس أهل البصرة، لم يشتركوا في ثورته، بل هرب رؤوس أهل البصرة من قيس وتميم ومالك بن المنذر فلحقوا بعبد الحميد بن عبد الرحمن بالكوفة ولحق بعضهم بالشام[١٢٣]. وبعث يزيد بن عبد الملك رجالاً من أهل الشام إلى الكوفة ليشكر أهلها ويمنيهم ويعدهم الزيادة في أعطياتهم[١٢٤]، ثم وجه يزيد بن عبد الملك العباس بن الوليد في أربعة آلاف فارس جريدة خيل حتى وافوا الحيرة[١٢٥]، ثم أقبل بعد ذلك مسلمة بن عبد الملك في جنود أهل الشام والجزيرة وعدتهم في سبعين ألفاً وقيل ثمانون ألفاً[١٢٦]، وكان يزيد على زعم صاحب تاريخ العيون والحدائق قد قال حين خلع يزيد بن عبد الملك، اني لأرجو أن أهدم دمشق حجراً على حجر، فردّ الفرزدق عليه بهذه الأبيات:

تخبرك الكهـــــــان أنك ناقص
دمشق التـــــي كانت الجنّ حرّت
لها من الجبـال الثلـج صخـراً كأنـه
قناعـيس حتـى أشرقت واسمحـــرّت

(١٢١) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٨٧، العيون والحدائق، ص ٥٩.
(١٢٢) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٨٧.
(١٢٣) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٨٣.
(١٢٤) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٨٥، العيون والحدائق، ص ٦٧، ٦٨.
(١٢٥) الطبري، ج ٦ ص ٥٨٥، الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٩.
(١٢٦) ابن الأثير، ج ٥ ص ٧٣، ٧٤، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٣٧٨.

أتتك خيول الشام تخطر بالقنا
لها خرق كالطير لما استقلّت
يقود نواصيها إليك مبارك
إذا ما تصدّى للكتيبة ولّت
من آل أبي العاصي حوالي لوائه
ثمانون ألفاً كلها قد أطلّت[١٢٧]

ولما سمع أصحاب المهلّب بوصول مسلمة وأهل الشام راعهم ذلك، فبلغ أمرهم المهلّب الذي تعجب لخوف أهل العسكر من مجيء أهل الشام ومسلمة، وقال: «وما هم أهل الشام؟ هل هم إلا تسعة أسياف سبعة منها إلي وسيفان علي[١٢٨]»، بمعنى أن النسبة الكبرى من الجيش كانت تتألف من القبائل اليمانية، ولكن يزيد بن المهلّب كما يبدو قد أخطأ التقدير، فهذه الأسياف لم تقف إلى جانبه، وإنما بقيت إلى جانب مسلمة، واستمرت المواجهة بين يزيد ومسلمة ثمانية أيام حتى إذا كان يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من صفر سنة ١٠٢ هـ بعث مسلمة إلى الوضاح أن يخرج بالوضاحية والسفن حتى يحرق الجسر، فلما دنا الوضاح من الجسر، لهب فيه النار فلما رأى الناس ذلك، وقيل لهم بأن الجسر قد أحرق انهزموا، فلما سمع يزيد بانهزام الناس قال، وهم انهزموا؟ هل كان قتال يهزم من مثله؟ وخرج يزيد ومعه أصحابه ومواليه وناس من قومه وطلب منهم أن يضربوا وجوه من ينهزم، ثم لم يلبث أن تركهم عندما رأى كثرة المنخذلين[١٢٩].

وهزم يزيد وقتل أخوه حبيب بن المهلّب ثم قتل يزيد واحتزت رأسه ورؤوس من قتل معه من أهل بيته، وبعث بها إلى الشام إلى يزيد بن عبد الملك، فأمر أن يطاف بها في أجناد الشام[١٣٠].

---

(١٢٧) العيون والحدائق، ص ٦٧، ٦٨.
(١٢٨) المصدر السابق، ص ٧٠، ابن الأثير، ج ٥ ص ٧٥.
(١٢٩) الطبري، ج ٦ ص ٥٩٤، ابن الأثير، ج ٥ ص ٧٥.
(١٣٠) العيون والحدائق، ص ٧٤.

ونلاحظ في فتنة يزيد بن المهلّب أنه لم يستطع استقطاب أهل الكوفة والبصرة وأشرافهما إليه، كما استطاع أن يفعل ذلك عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث. وربما يعود ذلك إلى السياسة السليمة التي اتبعها ولاة عمر بن عبد العزيز في تألف أهل البصرة والكوفة وأشرافهما، لا سيما وأن يزيد بن عبد الملك لم يعمد إلى عزلهما، وقد قتل عدي بن أرطاة الفزاري والي البصرة من قبل معاوية بن يزيد بن المهلّب مع ثلاثين أسيراً كانوا في سجنه، كما كان لموقف الحسن البصري من فتنة يزيد أثر كبير في تثبيط الناس بحيث أن الذين التفوا حوله، حسب رواية الطبري كانوا من سقاط الأبلّة وعلوج فرات البصرة[١٣١].

## ثورة زيد بن علي ودور أهل الشام في القضاء عليها

إذا لم يعمد أهل العراق إلى تأييد يزيد بن المهلّب أو دفعه إلى الثورة، فقد كانوا السبب في دفع زيد بن علي إليها سنة ١٢١ هـ وكان هذا ما يخشاه الخليفة هشام ابن عبد الملك عندما توجه زيد بن علي إلى الكوفة ليواجه يوسف بن عمر والي هشام على العراق الذي ادعى أن خالد القسري قد أودع ستمائة ألف درهم عند زيد بن علي، وأن زيداً ينكر هذه الوديعة، فلما أقسم زيد أغلظ الإيمان أن لا علم له بها، طلب هشام من واليه يوسف أن يعجل بإشخاصه إلى الحجاز وأن لا يسمح له بالإقامة فيها لأن أهل الكوفة معروفون بحبهم لأهل هذا البيت «فان أعاره القوم أسماعهم فحشاها من لين لفظه وحلاوة منطقه مع ما يدلي به من القرابة برسول الله (صلعم) وجدهم ميلاً إليه غير متئدة قلوبهم ولا ساكنة أحلامهم ولا مصونة عندهم أديانهم. وبعض التحامل عليه فيه أذى له واخراجه وتركه مع السلامة للجميع والحقن للدماء والأمن، أحب إليّ من أمر فيه سفك دمائهم وانتشار كلمتهم (تفرّقها) وقطع نسلها، والجماعة حبل الله المتين، ودين الله القويم وعروته الوثقى[١٣٢]».

---

(١٣١) الطبري، ج ٦ ص ٥٩٤.

(١٣٢) الطبري، ج ٧ ص ١٧٠.

وألح يوسف بن عمر على زيد بن علي بالخروج من الكوفة حتى أنه شخص عنها حتى أتى القادسية، فلحقته الشيعة واستمروا في اقناعه حتى ردوه إلى الكوفة إذ أكدوا له أن مائة ألف رجل من أهل الكوفة مستعدون لمساندته والقتال معه في حين أن أهل الشام في الكوفة قلة، «ولو أن قبيلة من قبائلهم نحو مَذْحِج وهمدان أو تميم أو بكر نصبت لهم لكفتهم[١٣٣]».

وقد حاول مسلمة بن كهيل اقناع زيد بعدم الاعتماد على أهل الكوفة الذين خذلوا جده «بايعه ثمانون ألفاً وقاتل معه ثلثمائة[١٣٤]»، كما أن عبد الله بن حسن كتب إلى زيد يبين له أن أهل الكوفة ينطبق عليهم ما قاله علي بن أبي طالب فيهم، «ان أهملتم خضتم، وان حوربتم خرتم، وان اجتمع الناس على امام طعنتم، وان أجبتم إلى مشاقة نكصتم[١٣٥]».

لم يستنجد يوسف بن عمر بالخليفة هشام في القضاء على ثورة زيد بن علي بل اعتمد على أهل الشام المقيمين في الحيرة[١٣٦] التي اتخذها مركزاً له ومقراً بدلاً من واسط[١٣٧] وفي الكوفة مع عبيد الله الكندي الذي كان مع عمرو بن عبد الرحمن على شرطة الكوفة[١٣٨]، وإذا أخذنا برواية سعيد بن حيثم نرى أن أهل الشام في العراق كانوا يبلغون حوالي اثني عشر ألفاً[١٣٩].

وعندما بعث الحكم بن الصلت والي الكوفة إلى يوسف بن عمر فأخبره خبر زيد، أرسل يوسف جعفر بن العباس الكندي في خمسين فارساً[١٤٠]، والعباس بن سعيد المُزَني صاحب شرطته في أهل الشام، فسار حتى انتهى إلى زيد بن علي في دار

---

(١٣٣) المصدر السابق، ج ٧ ص ١٦٧، الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، دار المعرفة بيروت، ص ١٣٥.
(١٣٤) الطبري، ج ٧ ص ١٦٨.
(١٣٥) المصدر السابق، ج ٧ ص ١٦٩.
(١٣٦) الطبري، ج ٧ ص ٢٧٢.
(١٣٧) المصدر السابق، ج ٧، ص ١٨٠، الأصفهاني، مقاتل الطالبيين ص ١٣٤.
(١٣٨) الطبري، ج ٧ ص ١٨٠.
(١٣٩) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص ١٤٠.
(١٤٠) الطبري، ج ٧ ص ١٨٤.

الرزق[١٤١]، ووزع أهلّ الشام بين جبانة الصيادين، والكناسة وجبانة كندة[١٤٢]، وبمجرد أن رأى أصحاب زيد بن علي الذين بايعوه أن يوسف بن عمر قد بلغه أمر زيد حتى نكث قسم منهم بيعته[١٤٣]، وعندما قرر زيد بن علي الخروج في اليوم المتفق عليه لم يوافه سوى مائتان وثمانية عشر رجلاً، ولما تساءل أين الناس، قيل له انهم في المسجد الأعظم محصورون[١٤٤].

استطاع يوسف بن عمر أن يقضي على ثورة زيد بن علي دون مشقة كبيرة، وانتهت الثورة بمقتل زيد سنة ١٢٢ هـ الذي أصيب بسهم في جبهته اليسرى. ونظراً للدور الذي لعبه أهل الكوفة في تحريض زيد على الثورة، فان يوسف بن عمر بعد قضائه عليها أقبل إلى الكوفة وخطب بهم، وندّد بأهل الكوفة المدرة الخبثة، وأنه سوف ينزل بهم الصغار والهوان، ويقطع عنهم أرزاقهم وعطاءهم[١٤٥]، أما البلاذري فيذكر أن يوسف بن عمر كتب إلى هشام في أهل الكوفة، فكتب إليه هشام: «ان أهل الكوفة أهل سمع وطاعة فمر لهم بأعطياتهم[١٤٦]». ولكن يبدو أن يوسف حرم أهل الكوفة بينما كان يعطي مقاتلة الشام وقادتهم المقيمين في الحيرة عطاءهم من أموال العراق[١٤٧]، لأنه عندما جاء عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والياً على العراق من قبل يزيد بن الوليد، وأعطى الناس أرزاقهم وأعطياتهم، نازعه قواد أهل الشام، وقالوا: «تقسم على هؤلاء فيئناوهم عدونا». فقال عبد الله لأهل العراق: «اني قد أردت أن أرد فيئكم عليكم وعلمت أنكم أحق به فنازعني هؤلاء فانكروه علي[١٤٨]»، ولكن قواد الشام لم يلبثوا أن اعتذروا من أهل الكوفة.

---

(١٤١) المصدر السابق، ج٧ ص ١٨٥.
(١٤٢) المصدر السابق، ج٧ ص ١٨٥، مقاتل الطالبيين، ص ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩.
(١٤٣) الطبري، ج٧ ص ١٨٠، ١٨١.
(١٤٤) كان يوسف بن عمر قد بعث إلى الحكم بن الصلت أن يجمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم ويحصرهم فيه، فكان ذلك قبل يوم من خروج زيد (الطبري، ج٧ ص ١٨١).
(١٤٥) العيون والحدائق، ص ١٠٠.
(١٤٦) البلاذري، أنساب ج٣، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧م ص ٢٥٩.
(١٤٧) الطبري، ج٧ ص ٢٧٢.
(١٤٨) المصدر السابق، ج٧ ص ٢٨٤.

وهكذا نرى أن مقاتلة الشام بشجاعتهم وصبرهم وطاعتُهم لقادتهم قد حققوا الكثير في مجال توطيد الأمن والنظام في العراق، وهذا ما ساعد الولاة على تحقيق تلك الفتوحات العظيمة في الجناح الشرقي، وتحقيق المشاريع العمرانية والاقتصادية التي تحدثت عنها مصادرنا.

## دور أهل الشام في دعم الحكم الأموي في المغرب

بين عودة موسى بن نصير عام ٩٦ هـ/٧١٥م وانفجار ثورة الخوارج في المغرب سنة ١٢٣ هـ/٧٤١م انقضى سبع وعشرون سنة كان سلطان الخلافة الأموية فيها وطيداً بشكل عام، واتسمت هذه الفترة بانتشار الإسلام انتشاراً سريعاً، ولعل من المفارقات أن انتشار الإسلام في هذه البلاد التي كانت عسيرة الفتح شديدة المقاومة كان أسرع منه بكثير في البلاد التي تم فتحها بسرعة، وكان من المفروض أن يؤدي ذلك إلى تقوية الرابطة بين الخلافة والمغرب، ولكن ما حدث هو العكس تماماً، إذ أن انتشار الإسلام بين السكان، بدأ يتخذ شكلاً يقلب طبيعته من رابطة بالخلافة في دمشق إلى منفر عنها، وذلك بتبلوره على شكل مذهب الخوارج ــ الإباضية والصُّفْرية ــ الذين أنهكوا في الشرق تحت ضربات الأمويين في العراق، فابتعدوا عن ذلك المكان القريب من المركز إلى تلك البقعة القاصية البعيدة وهي المغرب، واستطاعت هذه الفئة أن تجسم المظالم وتضخمها في أعين الناس وترسم لهم طريق تقويض الحكم القائم.

وفي سنة ١٢٢ هـ انطلقت ثورة الخوارج الصفرية من طنجة وشملت بعد ذلك المنطقة الغربية من ديار الإسلام، إذ استغل الخوارج خروج جيش والي افريقية لغزو صقلية فرفعوا راية العصيان في طنجة وتزعمهم ميسرة المطغري الذي تنعته الروايات العربية بالحقير، واستطاعوا تحقيق أول نصر لهم في مدينة طنجة بقتل عاملها ابن المرادي المعروف بجوره في فرض الضرائب على البربر، ومن ثم اتجهوا نحو الجنوب للسيطرة على المغرب الأقصى واستطاعوا احتلاله وقتل اسماعيل بن عبيد الله عامل والده على منطقة السوس، وبما أن الثورة خارجية والخوارج لا يعترفون بأحقية الأمويين

بالخلافة، لذا اعتبرت انتفاضتهم، انتفاضة على الحكم الأموي، وهكذا خلع البربر طاعة الخليفة وبايعوا زعيمهم ميسرة كخليفة[١٤٩].

لما بلغ عبيد الله بن الحبحاب مقتل عامله وولده كتب إلى حبيب بن أبي عبده[١٥٠]، يأمره بالرجوع من صقلية، وأرسل خالد بن حبيب الفهري[١٥١] على رأس جيش للقاء ميسرة، وانتصر خالد في المعركة التي تمت بالقرب من طنجة، وانصرف ميسرة عائداً إلى طنجة حيث قتله أتباعه لأمور أنكروها عليه من سوء سيرته وتغيره عما كانوا بايعوه عليه مما أدى للهزيمة على حد زعمهم، وولوا أمرهم خالد بن حبيب الزناتي، وسار الخليفة الخارجي الجديد للقاء ابن حبيب فوجده في قتال مع جماعات من البربر فداهمه أثناء احتدام المعركة، فتكاثرت البربر على البربر وهزموهم، وكره خالد بن حبيب أن يهرب فألقى بنفسه وأصحابه إلى الموت، فقتل مع رجاله من القواد الأشراف، ولذا سميت الوقعة بموقعة الأشراف[١٥٢]، فلما بلغت هذه الأحداث مسامع هشام بن عبد الملك، قال: «والله لأغضبنّ لهم غضبة عربية، ولأبعثنّ لهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي[١٥٣]»، وندب هشام بن عبد الملك كلثوم بن عياض القسري لقتال البربر وولاه افريقية وبعث معه ثلاثين ألف. فارس، عشرة آلاف من صلب بني أمية وعشرين ألفاً من العرب[١٥٤]، بينما يذكر ابن عذارى في رواية أخرى أنه بعث كلثوم بن عياض إلى افريقية وعقد له على اثنى عشر ألفاً من أهل الشام وكتب إلى والي كل بلد أن يخرج معه[١٥٥]، وأوصى الخليفة أن تكون القيادة لكلثوم بن عياض

---

(١٤٩) د. أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة، طبعة ١٩٧٢، ص ٤٦.

(١٥٠) حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري، ولد ونشأ بمصر ودخل الأندلس مع موسى بن نصير وبقي فيها مع وجوه القبائل إلى أن خرج منها مع من خرج برأس عبد العزيز بن موسى بن نصير، ثم رجع بعد ذلك إلى افريقية (تهذيب، ج ٤، ص ٣١).

(١٥١) خالد بن حبيب هو ابن حبيب بن مسلمة الفهري الذي كان من كبار القادة الفاتحين شهد اليرموك ودخل دمشق مع أبي عبيدة، وكان معاوية يغزيه الروم وكان يقال له حبيب الروم.

(١٥٢) ابن عذارى، ج ١ ص ٥١، ٥٤، ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٢١٨.

(١٥٣) ابن عذارى ج ١ ص ٥٥.

(١٥٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٢.

(١٥٥) المصدر السابق ج ١ ص ٥٦.

القسري أمير دمشق وفي حال موته تنتقل القيادة إلى ابن عمه بَلْج بن بِشر ومن بعده إلى ثَعْلَبة بن سَلاَّمة العاملي[١٥٦].

كان من سوء الحظ أن وقعت المنافسة بين القواد، حبيب بن أبي عبده القائد الافريقي وابنه عبد الرحمن من جهة وكلثوم بن عياض وابن عمه بَلْج بن بشر من جهة أخرى، وكادت المنافسة تؤدي إلى الحرب بين الطرفين لولا المساعي التي بذلت للصلح، فدارت بينهم وبين البربر معارك انتهت بهزيمة جيش الخليفة بقسميه الافريقي والشامي، وقتل كلثوم وحبيب بن أبي عبده، وصار أمر العرب بافريقية إلى بَلْج، ولجأ فلّهم إلى سبتة حتى ضاق عليهم الأمر ضيقاً شديداً، فكاتب بَلْج وأصحابه عبد الملك بن قطن صاحب الأندلس وسأله ادخاله وادخال من معه من الجند وذكروا له ما صاروا إليه من الجهد، فأبى عبد الملك ادخالهم في بادىء الأمر، فلما ثار البربر بالأندلس أيضاً وقاتلوا العرب وطردوهم من جليقية وشعر عبد الملك بالخطر، اضطر إلى إدخال بلج وأصحابه، فكاتبهم وشرط عليهم مقام سنة بالأندلس ثم يخرجون عنها فرضوا بذلك، وأخذ منهم رهائن أنزلهم بجزيرة أم حكيم، ثم أدخل بلجا وأصحابه وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام[١٥٧]. واستطاع عبد الملك بن قطن بمساعدة بلج وجنده أن يهزموا البربر هزيمة عظمى بوادي سليط[١٥٨].

وفشلت ثورة البربر كذلك في افريقية، فقد ولى الخليفة حَنْظَلة بن صفوان الكلبي والياً على افريقية، فلم يكد ينزل القيروان حتى توجه ضده جيشان للخوارج، فتمكن من هزيمة كل جيش على حدة قرب القيروان، في معركتي الأصنام والقَرْن، سنة ١٢٤ هـ. هذا وإن الصورة التي يقدمها المؤرخون القدماء للهزيمة وخاصة لأعداد الجيوش وقتلاها تدعو للظن بوجود مبالغة فيها، فابن عذارى يعلق على هذه الهزيمة بقوله: وقيل ما علم في الأرض مقتلة أعظم منها، وأراد حنظلة أن يحصي من قتل وأمر

(١٥٦) المصدر السابق ج ١ ص ٥٦، ج ٢ ص ٤٧.

(١٥٧) ابن عذارى، ج ٢ ص ٤٣.

(١٥٨) المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٣.

بعدهم فما قدر على ذلك، وأمر بقصب فطرحت قصبة على كل قتيل، ثم جمعت القصب وعدّت فكان القتلى مائة وثمانين ألفاً، وكانوا صفرية يستحلون النساء ويسفكون[١٥٩]». وكان الليث بن سعد[١٦٠] يقول: ما من غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلي من غزوة الأصنام والقرن[١٦١].

رغم كل ماقيل عن أهمية نصر جيش الخلافة بقيادة حنظلة بن صفوان، فإن ما أسفر عنه لم يتجاوز تخليص المغرب الأدنى أو افريقية من الخوارج، أما بقية المغرب فقد بقي بأيدي الخوارج، وكان الأمر يحتاج للاستمرار في بذل الجهود حتى يتم إعادة بسط سلطان الخلافة، لكن مثل هذا الأمر لم يتحقق لأن المركز انشغل خلال عقدين من السنين تقريباً عن هذا الجزء المتطرف من دولة الخلافة، ولم يستطع أحد فيه أن يفعل فعل هشام بن عبد الملك في الأصرار على إرسال الجيوش لإخضاع المتمردين، فقد توفى هشام في العام الذي تلا انتصار القرن والأصنام، ودخلت الدولة الأموية منذ ذلك الوقت مرحلة الاحتضار التي استمرت قرابة سبع سنوات حتى تحطمت نهائياً تحت ضربات العباسيين الزاحفين من الشرق.

## موقف أهل الشام من أحداث الفتنة الثالثة

كان مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ هـ سبباً في ابتداء الفتنة الثالثة التي انتهت بمقتل مروان بن محمد سنة ١٣٢ هـ، وسقوط الأسرة الأموية، إذ أن القائمين بها كانوا من أهل الشام أولاً وأمويين ثانياً، وكلا العنصرين كما رأينا أساس في تثبيت السلطان الأموي، ولذا نجد محمد بن علي يختار خراسان مركزاً للدعوة العباسية بالرغم

---

(١٥٩) المصدر السابق، ج ١ ص ٦٤.

(١٦٠) الليث بن سعد (٩٤ ــ ١٧٥ هـ/٧١٣ ــ ٧٩١ م) كان أمام أهل مصر في عصره حديثاً وفقها، قال ابن تغرى، بردي، كان كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها في عصره، بحيث أن القاضي والنائب من تحت أمره ومشورته، أصله من خراسان، ومولده بقلقشنده ووفاته بالقاهرة، (الأعلام ج ٦ ص ١١٥).

(١٦١) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٤.

من أنه كان قد حل بين أهل الشام، ولكنه كان يعلم أن أهل الشام سفيانية مروانية[١٦٢]، ويعلق دانيل دينيت في رسالته عن مروان بن محمد بقوله: «إن نقطة الجدل في أطروحتنا هي أن سقوط الأمويين لم يكن نتيجة ثورة في خراسان بل نتيجة ثورة في الشام[١٦٣]». إذ أن مقتل الوليد الثاني الذي كانت له بيعة في الأعناق وعلى أيدي رجال بني أمية أنفسهم كان نقطة البدء في تحدي فكرة الشرعية ومسماراً ضخماً في نعش الخلافة كمنصب له قدسيته وهيبته[١٦٤]، وقد شعر كل من مروان بن محمد بأرمينية والعباس بن الوليد بسوء العاقبة، وحاولا ردع يزيد بن الوليد، وقال العباس لأخيه: «يا أخي أخاف أن يكون بعض من حسدنا هذه النعمة من عدونا أراد أن يغري بنا[١٦٥]».

وقد اجتمع على قتل الوليد كما يذكر الطبري جماعة من قضاعة واليمانية من أهل دمشق خاصة[١٦٦]، كما يشير إلى أن الذين اضطغنوا على الوليد بن يزيد آل الوليد بن عبد الملك وآل هشام وآل القعقاع واليمانية بما صنع بخالد بن عبد الله القسري[١٦٧]، إذ أنه دفع به إلى يوسف بن عمر والي العراق مقابل خمسين ألف درهم فقتله يوسف في العذاب[١٦٨]. ويرى بعض الباحثين أن اليمانية بشكل عام اعتبروا مقتل خالد إهانة لهم

---

(١٦٢) البلاذري، أنساب الأشراف، القسم الثاني، تحقيق د. عبد العزيز الدوري بيروت ١٩٧٨م، ١٣٩٨هـ، ص ٨١، أخبار الدولة العباسية لمؤلف مجهول ص ٢٠٥، ٢٠٦.

(١٦٣) د. فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، ص ٢٧٦.

(١٦٤) د. نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ٣٤٦.

(١٦٥) الطبري، ج٧ ص ٢٣٨، ٢٣٩، وقد كتب مروان إلى سعيد بن عبد الملك يأمره أن ينهى الناس ويكفهم... وقد جاء في هذا الكتاب: «ان الله جعل لكل بيت أركاناً يعتمدون عليها ويتقون بها المخاوف، وأنت بحمد الله ركن من أركان أهل بيتك... وقد بلغني أن قوماً من سفهاء أهل بيتك قد استنوا أمراً، ان تمت لهم رويتهم فيه على ما أجمعوا عليه من نقض بيعتهم، استفتحوا بابا لن يغلقه الله عليهم حتى يسفك دماء كثيرة منهم، وأنا اشتغل بأعظم ثغور المسلمين فرجا، ولو جمعتني واياهم لرمت فساد أمرهم بيدي، ولساني ولخفت الله في ترك ذلك لعلمي مافي عواقب الفرقة من فساد الدين والدنيا، وأنه لن ينتقل سلطان قوم قط إلا في تشتيت كلمتهم، وان كلمتهم تشوشت طمع فيهم عدوهم...». (الطبري، ج٧ ص٢٣٨، ٢٣٩).

(١٦٦) المصدر السابق، ج٧ ص ٢٣٣.

(١٦٧) المصدر السابق، ج٧ ص ٢٣٧.

(١٦٨) المصدر السابق، ج٧ ص ٢٣٤، العيون والحدائق، ص ١٢٨.

واعتبروا الخليفة ويوسف بن عمر وآل الحجاج مسؤولين عنه، ولكننا إذا دققنا في الروايات الواردة في مصادرنا لوجدنا أن الذين أيّدوا يزيد بن الوليد كانوا من سكان جند دمشق من أهل المزة ومن السكاسك وأهل داريا ودوما وحرستا وأهل دير مرّان والأرزة وسطرا وأهل الحديثة ودير زكي (من قرى غوطة دمشق[١٦٩])، وأن أهل حمص وفلسطين والأردن وجلهم يمانية قضاعية قد خالفوا يزيد بن الوليد[١٧٠]، بل أن أهل حمص أغلقوا أبواب المدينة عندما بلغهم مقتل الوليد وأقاموا النوائح عليه[١٧١]، ورفض أهل حمص ما اقترح عليهم من قبل الوفد الذي أرسله يزيد بن الوليد للتفاوض معهم على أنه لا يدعوهم إلى نفسه وإنما يدعوهم إلى الرضى من الأمة وأن يكون أمرهم شورى بينهم، وقال: نجتمع نحن وأنتم ونظراؤنا من أهل الشام فننظر لأنفسنا ونختار للمسلمين، ولكن الحمصيين رفضوا وقالوا: قتلتم خليفتنا ليس بيننا وبينكم إلاّ السيف[١٧٢]، وكاتبوا الأجناد، ودعوهم إلى الطلب بدم الوليد فأجابوهم واتفقوا أن لا يطيعوا يزيد[١٧٣]. ويبدو أن أهل دمشق لم يحبذوا كلهم فكرة الانتقاض على الوليد، إذ نجد يزيد بن الوليد يطلب من عبد العزيز بن الحجاج أن يقف بباب الجابية ويطلب من بني عبد الملك أن يتفرقوا في الناس ويحضوهم بأن من كان له عطاء فليأت لقبض عطائه، ومن لم يكن له عطاء فله ألف درهم معونة[١٧٤]، وأن يزيدا أمر فنودى، من ينتدب للفاسق الوليد وله ألف درهم فاجتمع أقل من ألف رجل، فنودى من ينتدب للفاسق وله ألف وخمسمائة درهم فانتدب يومئذ ألف وخمسمائة، ويقال انه ندبهم إلى ألفين فأتاه ألفان[١٧٥]، إذا صحت هذه الروايات فهي تظهر موالاة أهل الشام ولا سيما اليمانية منهم للوليد بن يزيد ورفضهم البيعة ليزيد في بادىء الأمر، كما أن نصر بن سيار والي خراسان ومروان بن

---

(١٦٩) الطبري، ج ٧ ص ٢٤٢، العيون والحدائق، ص ١٣٧، النويري، ج ٢١ ص ٤٧١، ٤٧٩.

(١٧٠) لطبري، ج ٧ ص ٢٦٢، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨.

(١٧١) المصدر السابق، ج ٧ ص ٢٦٢، ابن الأثير، ج ٥ ص ٢٩٢.

(١٧٢) عبد الجبار الخولاني، تاريخ داريا ص ٦٦.

(١٧٣) ابن الأثير، ج ٥ ص ٢٩٢.

(١٨٤) العيون والحدائق، ص ١٣٨.

(١٧٥) المصدر السابق، ص ١٣٨، الطبري، ج ٧ ص ٢٤٢، ٢٤٣.

محمد عامل أرمينية والجزيرة رفضاً الاعتراف بالأمر الواقع، ولم يقبلا بتسليم ما بأيديهما من صلاحيات لممثلي الخليفة الجديد، ولم يتح للأمور أن تتعقد أكثر من ذلك لأن يزيد الثالث ما لبث أن توفى سنة ١٢٦ هـ بعد حكم لم يدم سوى ستة أشهر وكان قبل وفاته قد أخذ البيعة لأخيه ابراهيم[١٧٦]، ولكن يبدو أن أمر الخلافة لم يتم لابراهيم فقد كان «يسلم عليه جمعة بالخلافة وجمعة بالأمرة، وجمعة يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالأمرة[١٧٧]»، ويذكر خليفة بن خياط في تاريخه أن أهل الشام بايعوا ابراهيم بن الوليد ما خلا أهل حمص فانهم أبوا أن يبايعوه[١٧٨]، وفي هذا الجو المضطرب يظهر مروان بن محمد والي أرمينية وأذربيجان منذ سنة ١١٤ هـ، وعن اسماعيل بن ابراهيم، أن مروان بن محمد عندما بلغه وفاة يزيد بن الوليد دعا قيسا وربيعة ففرض لستة وعشرين ألفاً من قيس وسبعة آلاف من ربيعة فأعطاهم أعطياتهم وولى على قيس اسحق بن مسلم العقيلي وعلى ربيعة المشاور بن عقبة ثم خرج يريد الشام واستخلف على الجزيرة أخاه عبد العزيز بن محمد بن مروان فلقيه وجوه قيس في أربعة أو خمسة آلاف من قيس، فساروا معه[١٧٩] حتى وصل إلى قنسرين حيث مال إليه سكان هذه المدينة الذين كانت غالبيتهم من القيسية وبايعوه، وكان على رأسهم يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري، ثم سار بجيشه إلى حمص حيث انضم إليه أيضاً بعض رجالاتها، ومنها توجه إلى عين الجَرّين دمشق وبعلبك، حيث التقى بجيش أرسله ابراهيم بن الوليد بقيادة سليمان بن هشام بن عبد الملك وكانت عدة جيشه مئة وعشرون ألف فارس على حد زعم الطبري ومعه حرسه الذكوانية[١٨٠]، بينما يقدر الرواة جيش مروان بثمانين ألف جندي، وكان النصر حليف مروان الذي تابع السير بعد ذلك إلى دمشق، حيث بايعه الناس في دمشق يوم الاثنين في ٢٩ صفر سنة ١٢٧ هـ، وبعد أن أخذ البيعة لنفسه اقتص من الذين قتلوا الوليد[١٨١]، إلاّ أن مروان حاول في الواقع اتباع سياسة المسالمة

(١٧٦) الطبري، ج٧ ص ٢٩٥.
(١٧٧) المصدر السابق، ج٧ ص ٢٩٩.
(١٧٨) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ٢ ص ٥٥٨.
(١٧٩) خليفة بن خياط، ج ٢، ص ٥٦٤، الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٦١.
(١٨٠) الطبري، ج٧ ص ٣٠٠، ٣٠١.
(١٨١) المصدر السابق، ج٧ ص ٣١١، خليفة، ج ٢ ص ٥٦٦.

ونسيان الماضي، وحاول استرضاء العناصر العربية المختلفة، ولا سيما رجالات الأجناد الشامية في فلسطين والأردن ودمشق وحمص وأكثرهم من القبائل اليمانية، وأظهر حسن نية تجاههم بأن ترك لهم أمر اختيار ولاتهم دون تدخل منه[١٨٢].

بعد أن تم الأمر لمروان بالشام انصرف إلى منزله بحرّان بالجزيرة وجعل مستقره فيها، إذ أنه كان قد نشأ فيها وعرف الناس هناك وعرفوه، وحيث كان للقيسية الغلبة والنفوذ وقد أخطأ مروان بعمله هذا، إذ أن دمشق كانت العاصمة الرسمية للدولة الأموية بعد موت معاوية، وإذا كان عدد من الخلفاء قد أقاموا في مواقع مختلفة لأسباب صحية أو عسكرية إو إدارية فانهم جميعاً لم يفكروا بنقل العاصمة من دمشق، أما مروان فقد تركها وأقام في حرّان، التي انتقلت إليها دوائر الدولة بما في ذلك بيت المال[١٨٣]، وكانت عملية نقل العاصمة إلى حرّان إساءة ضخمة إلى أهل الشام عامة، فقد خسر أهل الشام بانتقال العاصمة من دمشق المركز الممتاز الذي كان لهم والخيرات العميمة التي كانت تتدفق عليهم بسبب قربهم من الخليفة واتصالهم به، واعتماده عليهم وتقديمه لهم على غيرهم[١٨٤]، فإذا أضفنا إلى نقل العاصمة اعتماده على القيسية في الجزيرة وقنسرين، وعدم اتفاق كلمة أمراء بني أمية، أدركنا أسباب قيام الفرقة بين الناس وانقسامهم إلى شيع وأحزاب وبالتالي ظهور روح التمرد وإشاعة الفوضى.

بدأت الثورة في فلسطين منذ مطلع سنة ١٢٧ هـ وثار أهل الغوطة وتدمر وامتدت الثورة حتى وصلت إلى حمص المدينة التي أظهر أهلها من قبل ميلا إلى الوليد الثاني ومخالفة لقتلته، وتأييداً لمروان في مسيرته الانتقامية للخليفة المقتول، ولكنهم الآن انقلبوا على مروان وطلبوا المدد من بني كلب في تدمر، فجاءهم منها نحو من ألف فارس[١٨٥]، ومع ذلك استطاع مروان أن يقضي على هذه الثورات جميعاً، ثم قطع على

---

(١٨٢) الطبري، ج٧ ص ٣١٢.

(١٨٣) الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٦٨.

(١٨٤) نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ٣٥٨.

(١٨٥) الطبري، ج٧ ص ٣١٢، ٣١٣، خليفة، ج ٢، ص ٥٦٦، ٥٦٧..

أهل الشام بعثاً، وولى على كل جند منهم قائداً منهم وأمرهم باللحاق بيزيد بن عمر بن هبيرة، وكان مروان قبل مسيره إلى الشام وجهه في عشرين ألفاً من أهل قنسرين والجزيرة وأمره أن ينزل دورين إلى أن يقدم وذلك لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الحروري[١٨٦]. ولكن عدداً كبيراً من الجند الشامي الذي كان قد وجهه لحرب الخوارج، خرج من طاعته وانضم إلى سليمان بن هشام بن عبد الملك، وطلب هؤلاء من سليمان أن يطالب بالخلافة لنفسه لأنه أرضى عند أهل الشام من مروان، «فاستذلّه الشيطان وأجابهم، وخرج إليهم باخوته وولده ومواليه[١٨٧]»، وهكذا نجد أن الجزيرة والشام اللتين كانتا تؤلفان وحدة إدارية بحيث أن القوم إذا ذكروا أهل الشام ذكروا أهل الجزيرة[١٨٨]، انقسم مقاتلتها، فقد انضم أهل الشام إلى سليمان واعتمد مروان على مقاتلة الجزيرة وقنسرين والصقالبة[١٨٩].

ان هذا الانقسام في صفوف أهل الشام وفي صفوف العائلة الحاكمة وانضمام سليمان بن هشام إلى الضحاك الخارجي بعد هزيمته مع أشراف من أهل الشام، يعطي صورة واضحة عن تأزم الوضع في الشام، ومع ذلك استطاع مروان خلال ثلاث سنوات أن يقهر أعداءه جميعاً ويحقق مالم يستطعه أحد من قبل في ظروف مثل ظروفه، ولكن ما أن عاد إلى حرّان طلباً للراحة ولتجميع قواه، حتى ظهر ما لم يكن بالحسبان، فقد رفعت آنذاك الرايات السوداء، وتقدم أبو مسلم الخراساني باسم الدين وباسم آل البيت ظاهراً ليدك آخر آمال مروان وآخر آمال بني أمية في عرش بدأت أسسه تتزعزع منذ أمد ليس بالقصير[١٩٠]، ولكنني أعتقد أن أهل الشام لو وقفوا كلهم متحدين متكاتفين إلى جانب مروان لاستطاع الانتصار عليهم بالرغم من المناداة بأبي العباس خليفة في الكوفة، ذلك أن الوضع كان لا يزال حرجاً بالنسبة إليهم. فقد كان

---

(١٨٦) الطبري، ج ٧ ص ٣١٤.
(١٨٧) المصدر السابق، ج ٧ ص ٣٢٤.
(١٨٨) البلاذري، أنساب، القسم الثالث ص ١٥١.
(١٨٩) الطبري، ج ٧ ص ٣٢٧، خليفة ج ٢ ص ٥٦٩.
(١٩٠) نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ٣٧٢.

مروان كما يقول الطبري في حرّان في أهل الشام والجزيرة، وشيخ العرب يزيد بن عمر ابن هبيرة بالعراق في واسط في حلبة العرب[١٩١]، ولكن خذلان أهل الشام ولا سيما القبائل اليمانية والقضاعية لمروان في معركة الزاب كان عاملاً هاماً من العوامل التي أدّت إلى هزيمته[١٩٢]، وعندما اجتاز مروان ببلاد قنسرين وخناصره أوقعت تنوخ القاطنة بقنسرين بساقته، ووثب به أهل حمص، وسار إلى دمشق فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشي، ثم أتى الأردن فوثب الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع به لما رأوا من أدبار الأمر منه[١٩٣]، وعندما كتب أبو العباس إلى عبد الله بن علي يأمره باتباع مروان، لم يجد مقاومة تذكر إذ بايعه أهل منبج وقنسرين وحمص وبعلبك، أما في دمشق التي كان واليها الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم، فقد اضطر عبد الله بن علي وصالح بن علي الذي قدم مدداً عليه أن يحاصراها[١٩٤]، ويرد في الطبري، أن الناس تعصبوا بالمدينة فقتل بعضهم بعضاً، وقتلوا الوليد وفتحوا الأبواب في العاشر من رمضان سنة اثنتين وثلاثين ومائة[١٩٥]. وأقام عبد الله بن علي بدمشق خمسة عشر يوماً ثم ارتحل إلى الأردن، فأتوه وقد سوّدوا، ثم وجه صالح بن علي في طلب مروان الذي نجح في القضاء عليه ببوصير من أرض مصر[١٩٦].

نلاحظ أن أهل الشام لم يحاولوا الوقوف إلى جانب مروان أثناء تراجعه، بل انهم وثبوا به وأضعفوه، كما أنهم لم يقاوموا عبد الله بن علي في سيره في أرض الشام، بينما أظهر أهل الجزيرة بعض المقاومة، فقد رفض المنذر بن الزبير بن عبد الرحمن والي قرقيسيا أن يدخل في طاعة أبي جعفر المنصور الذي عينه أبو العباس والياً على الجزيرة، وأرمينية،

---

(١٩١) الطبري، ج٧ ص ٣٥١، ٣٥٢.

(١٩٢) المصدر السابق، ج٧ ص ٤٣٣، ٤٣٤، يذكر الطبري رواية عن شيخ من أهل خراسان، أن مروان قال لقضاعة، انزلوا فقاتلوا، فقالوا: قل لبني سليم فلينزلوا، فأرسل إلى السكاسك أن احملوا فقالوا: قل لبني عامر فليحملوا، فأرسل إلى السكون أن احملوا، فقالوا: قل لغطفان فليحملوا، فقال لصاحب شرطته، انزل، فقال: لا والله لا أجعل نفسي غرضا.

(١٩٣) المسعودي، مروج الذهب، ج٣ ص ٢٤٩.

(١٩٤) الأزدي، تاريخ الموصل، ص ١٣٤، ١٣٥.

(١٩٥) الطبري، ج٧ ص ٤٤٠.

(١٩٦) المصدر السابق، ج٧ ص ٤٤٠.

وأذربيجان سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فخلف أبو جعفر عليها مالك بن الهيثم فقتل المنذر وصلبه في سنة ١٣٣ هـ ومضى المنصور إلى الرقة فدعاهم فلم يجيبوه، فخلف عليهم موسى بن كعب ففتحها وغلب عليها، وسار المنصور في مدن الجزيرة يصالح من دخل في طاعته، ويخلف على من التوى عليه حتى فتحها فكان من صالح أهل الرها ونصيبين ودارا، وهذا يعني أن معظم مدن الجزيرة رفضت الدخول في طاعة العباسيين وقاومت في بادىء الأمر وأذعنت عندما وجدت أن لا فائدة من المقاومة[١٩٧].

أما ابن هبيرة في واسط فقد قاوم العباسيين مدة أحد عشر شهراً، وفي رواية البلاذري، أن أهل الشام هم الذين وقفوا ضد الحسن بن قحطبة عندما أرسله أبو العباس إلى ابن هبيرة، وهناك تأكيد على أهل الشام ومقاومتهم، وأن ابن هبيرة لم يقبل الدخول في مفاوضات الصلح إلا بعد أن جاءه خبر مقتل مروان ببوصير من أرض مصر، أما الرواية التي يوردها الطبري، فتشير إلى أن الحصار عندما طال على ابن هبيرة وأصحابه، تحنّى عليه أصحابه فقالت اليمانية، لا نعين مروان وآثاره فينا آثاره، وقالت النزارية لا نقاتل حتى تقاتل معنا اليمانية، وكان إنما يقاتل معه الصعاليك والفتيان[١٩٩].

ان هذه الروايات المتعددة وان اختلفت فهي تشير إلى أمر بالغ الأهمية وهو دور الشعب في دعم حكم أو خذلانه، فقد لعب أهل الشام الدور الأكبر في دعم حكم بني أمية وفي خذلانه، فهم الذين وقفوا إلى جانب معاوية بن أبي سفيان ويزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان، وهم الذين خذلوا مروان بن محمد، ويعود ذلك إلى فهم معاوية ومعظم خلفاء بني أمية لنفسية أهل الشام، بينما كان مروان بعيداً عنهم وأقرب إلى أهل الجزيرة. ولذلك فانني أتفق مع ميشيل فوكو وهو أحد كبار أصحاب الفكر المعاصرين في فرنسا والذي يرى أن السياسي الحقيقي الماهر يستطيع أن يقيد الناس بسلاسل أقوى من الحديد عن طريق أفكارهم هم أنفسهم.

---

(١٩٧) الطبري، ج ٧ ص ٤٤١، البلاذري، أنساب، القسم الثالث ص ١٥١.

(١٩٨) البلاذري، أنساب، القسم الثالث ص ١٤٧.

(١٩٩) الطبري، ج ٧ ص ٤٥٤.